السيد هادي المدرسي

تهافت النظريّة الدارونية

وسقوط النظريات التابعة



دار العلوم

تهافت النظرية الدارونية

وسقوط النظريات التابعة

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ/٢٠١١م



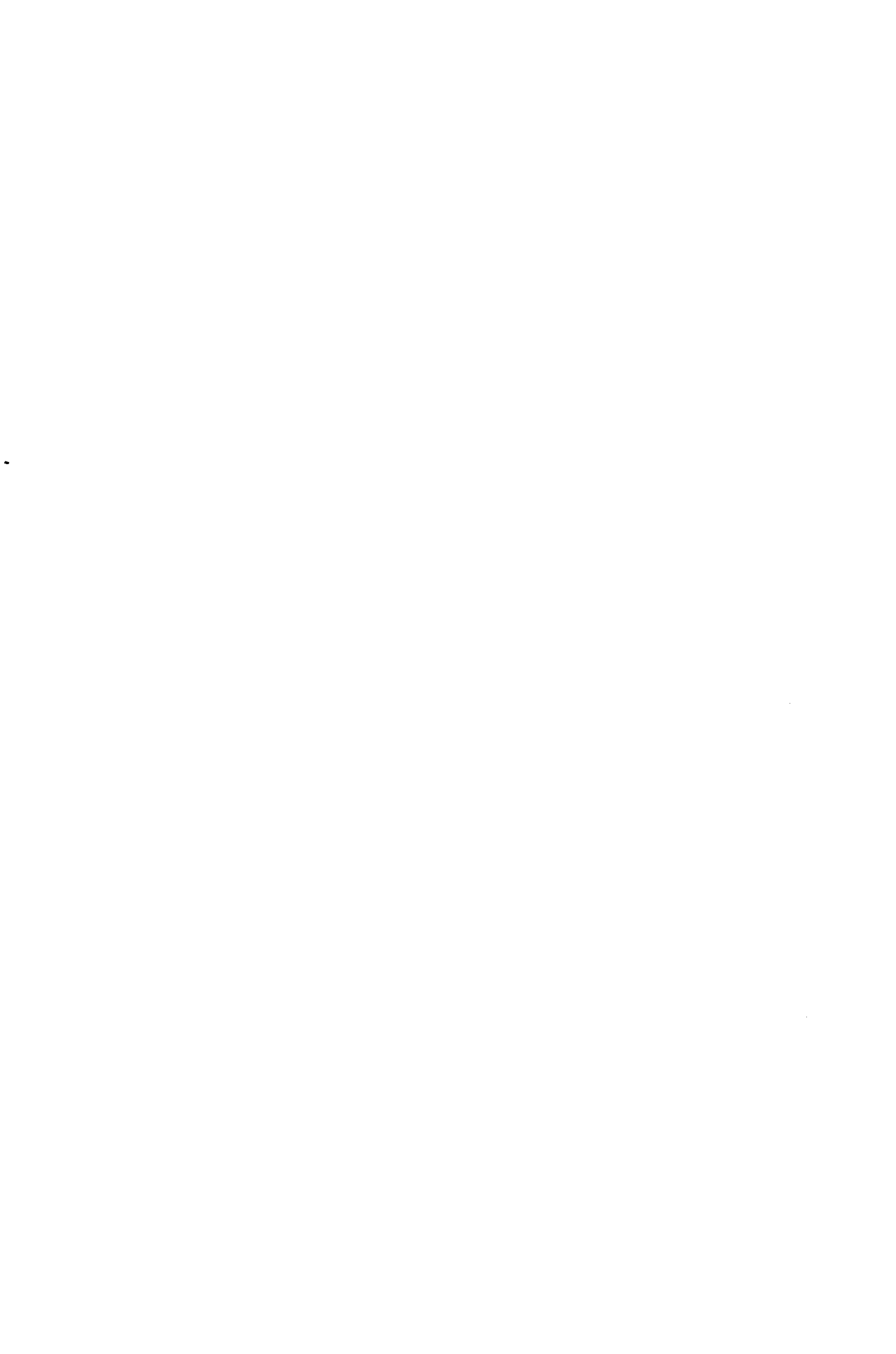
المكتب : الرويس - بناية عروس الرويس - تلفاكس : 01/545182 - 03/473919
ص . ب : 140 / 24 - المستودع : بئر العبد - مقابل البنك اللبناني الفرنسي - هاتف : 01/541650
www.daraloloum.com E-mail:info@daraloloum.com

تهافت النظرية الدارونية

وسقوط النظريات التابعة

السيد هادي المدرسي





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ *

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ *

ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ *

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * ٱهْدِنَا

ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

وَلَا ٱلضَّآلِّينَ *



ويكتب في ذلك السير آرثر كيث - مثلاً:

«إنّ نظريّة النشوء والارتقاء غير ثابتة علميّاً. ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان، ونحن لا نؤمن بها، إلاّ لأنّ الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخلق الخاص الذي يؤمن به المتدينون. وهذا ما لا يمكن حتّى التفكير فيه»[1].

وحكاية هؤلاء تشبه إلى حدٍّ بعيد حكاية من يقول: أنا لا أؤمن بأنّ القمر كوكب يشبه الأرض في أنّه يسبح في السماء ويدور حول الشمس. وإنّما أؤمن بأنّ القمر إنّما هو مجرّد «صحن فضّي» معلّق على جدران السماء؟!

فإذا سئل: لماذا؟

أجاب: لأنّني إذا لم أؤمن بذلك، فلا بدّ أن أؤمن بأنّ القمر كوكب يشبه الأرض في أنّه يسبح في السماء ويدور حول الشمس!

أليست الحكاية تستحق ... الرثاء؟

إنّ النظريات المادية المبتنية على هذا النوع من الاستدلال تقضي على إنسانيّة الإنسان، ولا يمكننا على ذلك أن نكون متفائلين بمستقبل «طيب» للبشر في ظلّها.

الحق أقول لكم: إذا لم نكفر بهذه النظريات المائعة، فإنّ أيّ تفاؤل بمستقبل الإنسان لا يكون له أيّ مبرّر إطلاقاً.

إذ كيف يمكن لمن يقوم تفكيره على أساس الهروب من اللّه، والتساقط على أعتاب المادة أن يوفّر الخير، والعدل، للمجتمعات؟

---

(١) Islamic Thought dec 1691.

إنّ «العلماء الماديين» يعكفون اليوم - بوحي من الفكر المادّي - على البحث عن أحدث الأسلحة النووية والهيدروجينية لصنع مستقبل بائس للإنسان، متحدّين بذلك الأمر بالصلح والمحبة والسلام والتعاون في مبادئ السماء.

إنّهم يبتعدون عن الإنسان بمقدار ما يبتعدون عن الله فيذبحونه في سبيل المصالح المادية، ويفتكون به، ويسلخون جلده، ثم يشربون نخب الانتصار عليه!

فكيف يمكن أن ينقلب الجلاّد إلى باحث عن الحب في قلبه للضحية؟

حقّاً إنّ من العبث أن يفكر العالم في بناء مستقبل حضاري يقوم على أساس من العدل والحريّة والتعاون ما دام يبني فكره على أساس من تبرير التدمير والاستعباد والتمزّق.

هذا ما أعتقده. وسيجد القارئ في الكتاب برهان اعتقادي.

١٣٩١هـ - ١٩٧٠م
هادي المدرِّسي



ثلاث حقائق

١

ليس «تشارلس روبرت دارون» البريطاني «١٨٠٩-١٨٨٢» هو الواضع الرئيسي لنظرية «التطوّر» التي اشتهرت باسمه.

فقد سبقه إلى ذلك «جان باتيست لامارك» الفرنسي، «١٧٤٨ - ١٨٢٩» غير أنّ دارون استطاع أن يدخل بعض التعديلات الطفيفة على نظرية زميله الفرنسي بحيث جعل النظرية أكثر مرونة من ذي قبل. ممّا حمل الهيئات السياسية لأن تستغل كتاب: «أصل الأنواع» لدارون أكثر من كتاب «فلسفة الحيوان» للامارك.

.. وأيضاً فإنّ لامارك ليس هو المكتشف الأوّل، فقد سبقه إلى ذلك كهنة بابل وآشور ومصر قبل آلاف السنين، فقد اعتقد هؤلاء - كما اعتقد لامارك وداروِن فيما بعد - بأنّ الإنسان لم يكن في بدء التكوين إلاّ كتلة لزجة من المادّة لا شكل لها ولا صورة. اللّهم إلاّ نفثة من الحياة نفثها الخالق فيها، ومن ثمّ أثرت الطبيعة في تلك المادة، فتقلّبت في أطوار من النشوء بلغت في حدّها الأخير: الصورة البشرية.

وكانوا يعتقدون أيضاً: بأنّ اشتراك الكواكب بعضها مع بعض

كان السبب في نشوء الأحياء في الأرض، وأنّه بتأثير الكواكب السيّارة في عناصر الأرض قد تعاقبت الأحياء فيها، وكانوا يقولون بأنّ الدور الكامل استغرق سبعة آلاف سنة، انفرد كلّ كوكب من الكواكب السيّارة في التأثير ألف سنة منها بنفسه، ثمّ اشترك معه في ستّة آلاف سنة التي اكتمل بها دور كوكب من الكواكب غير السيّارة، وهكذا دواليك على مرّ العصور وتوالي الأجيال.

وهذه المعتقدات القديمة لا تزال موجودة لدى القبائل المتوحّشة التي تقطن أواسط القارات العظمى، وهكذا دواليك على مرّ العصور وتتالي الأجيال.

٢

نظراً لقيام النظريات الماديّة على أساس التسليم المطلق بالداروينيّة، فإنّ هذه النظريات لا تستطيع أن تتخلّى عن الداروينيّة، بالرغم من الضربات التي تتلقاها ـ هذه الأخيرة ـ بصورة مستمرّة من العلوم التجريبية في المجالات البيولوجية، والفسيولوجية، والجيولوجية، والأنتروبيولوجية .. إلخ.

ولهذا...

فكلّما يُكتشف أمر علمي جديد يتعارض جذريّاً مع أصول الداروينيّة، فإنّ هذه الماديات تتصدّى للدليل بالتجاهل والمراوغة، والتكذيب ممّا يؤدّي إلى وقوع خلاف بين النظريّة والدليل العلمي لفترة طويلة من الوقت، حتّى إذا بدأ الدليل العلمي يفرض نفسه على الفكر الإنساني، عندئذٍ يعلن المؤمنون بالداروينيّة أن ذلك لا يضر بجوهر النظرية ما دامت قابلة للتطوير والتحوير.

وليست التعديلات الكثيرة التي أُدخلت على النظرية حتّى الآن، والتي أدّت إلى نبذ النظرية الأصلية التي عرضها «لامارك»، نبذاً كليّاً، وإلى تغيير النظريّة التي عرضها «دارون» تغييراً جذريّاً تحت ضغط من العلميّة، والاكتشافات الحديثة، ليس ذلك إلاّ دليلاً صارخاً على هذه الحقيقة.

٣

إنّ الدارونيّة ليست - في أحسن الفروض - أكثر من «وجهة نظر» .. ليس غير ذلك أبداً.

وبحكم منطق العلم، فلا يجوز للإنسان في القرن الواحد والعشرين أن يؤمن بها لمجرّد أنّها «وجهة نظر» تؤمن بها فئات هنا أو هناك .. إنّ ذلك من صميم التخلّف.

تقول الموسوعة العربية الميسّرة:

«الدارونيّة» رأي في التطوّر، فصّله: تشارلس روبرت دارون، وكان له أثر في الميدان البيولوجي.. إنّها «رأي» لا أكثر..

وعلينا أن نبحث، وننقّب لنعرف فيما إذا كان هذا «الرأي» صائباً أم خاطئاً.

أمّا الجمود، على النظريّة، لمجرّد أنّها أساس من أسس الفلسفة الماديّة المعاصرة، والإيمان العفوي الساذج بها، فذلك هو التخلّف عينه...

ونحن نأسف، لتفشّي هذا النوع من التفكير اللامنطقي بين أوساط قد توصف بـ«المثقفة». بالرغم من أنّ كثيرين من مروجي

الداروتيّة، في قلب المجتمعات الماديّة يصرحون بأنّها لا تزال «رأياً».

يقول «جون لويس» ـ الماركسي الروسي ـ الذي كثيراً ما يتحدّث عن «الارتقاء الداروني»، وعن التطوّر والتمثّل الوراثي وما يترتّب عليه، يقول في لحظة من لحظات يقظة عقله: «إنّ هذه الآراء لا تزال غير تامّة، وهي تحتاج حتماً إلى تعديلات وإعادات نظر مستمرّة»[1].

والواقع فإنّنا عندما نريد أن نبحث في قضيّة تاريخيّة، فلا يجوز لنا أن نتخذ موقفاً معيناً، إلاّ بعد أن تتوافر لدينا إثباتات علميّة على ذلك.

ذلك لأنّ مجرّد إمكانية وقوع الشيء، لا يستطيع أن يكون مبرراً لاتخاذ المواقف ـ الإيجابية أو السلبية ـ لأن أكثر أحداث التاريخ يمكن أن تفسّر بخلاف الواقع، إذا اكتفينا بمجرّد «الإمكان» في إثباتها وتفسيرها.

إنّ تفسير التاريخ يجب أن يقوم على ركيزتين: الإمكانية من جهة؛ ووثائق الإثبات من جهة أخرى، ولا تكفي إحداهما عن الأخرى.

فمثلاً تفسير وجود الإنسان بأنّه ظاهرة طبيعية تدرّجت من مادّة أولى، ثمّ تطوّرت إلى شكلها الحاضر بدون إرادة عليا، يحتاج إلى توافر الأمرين التاليين:

الأوّل: الإمكانية. بمعنى أن يكون هذا التطوّر المزعوم ممكن

---

(١) «الإنسان والارتقاء» ١٨ ـ تعريب عدنان جاموس ـ دار الجماهير ١٩٧٠.

الوقوع في نطاق اعتبارات الزمان والمكان.

الثاني: الإثبات. بمعنى أن تكون لدينا مجموعة وثائق علميّة تثبت تاريخيّاً وقوع مثل هذا التطوّر بالفعل.

أمّا توافر مجرّد الإمكانيّة فلا يكفي - كما أنّ توافر وثائق الإثبات من دون الإمكانية لا يكفي.

هذا ما تقتضيه أبسط قواعد المنطق في تفسير التاريخ سواء التاريخ الطبيعي، أو السياسي، لا فرق.

ولكن ماذا تقدّم الداروניّة، في إثبات نظريتها الخاصة بتطوّر الإنسان؟

إنّ مطالعة دقيقة لمصادر الداروניّة تكشف عن مغالطة كبيرة، في تقديم النظرية. فهي إذ لا تقدم أيّة إثباتات علميّة إطلاقاً، تكتفي - في أحسن الفروض - بإمكانية الوقوع، على أساس أنّه إذا كان التفسير «الكذائي» يمكن أن يكون صحيحاً، فهو صحيح بالفعل!

وسنكشف في الفصول القادمة عن هذه المغالطة بالوثائق والأرقام.



القِسْمُ الأوَّل



مناقشات عامّة في النظريّة

في عام ١٨٣١م أبحرت سفينة شراعية صغيرة لم تكن حمولتها تزيد على ٢٤٢ طناً بقيادة الكابتن فتزوري، وكانت السفينة وهي من الأسطول الملكي البريطاني - تحمل على متنها الشاب الذي قدّر له أن يحتلّ اسماً كبيراً في تاريخ الفلسفة المادية، هو تشارلس داروْن.

ولقد استغرقت سفينة «البيجل» - وهذا اسمها - في الرحلة خمس سنوات بدلاً من سنتين كما كان مقرّراً، زارت خلالها جزر جالا باجوس، وآزورس، ونيوزيلندا، وتاهيتي وأستراليا، وخلال الرحلة الطويلة كان داروْن يجمع العيّنات من البرِّ والبحر، ومن تحت الماء، ومن فوق الماء ويدرس ويتأمّل، ويجمع ملاحظاته عن الأحياء في أرجاء الأرض.

وقد لاحظ داروْن الأمور التالية:

١- إنّه بالرغم من تشابه هذه الجزر في المناخ وطبيعة التربة، تشابهاً كبيراً فإنّ أيّاً منها لم يكن يحتوي على نفس النوع من الكائنات التي تعيش على الجزر الأخرى. فمثلاً كان «اليمام» البرّي يرتع في كلّ جزر هذا الأرخبيل النائي، إلاّ أنّ كلّ جزيرة كانت تحتفظ لنفسها بنوع خاص من اليمام، وهو وإن كان قريب الشبه بأقرانه الموجودة على الجزر الأخرى، إلاّ أنّه كانت بينها اختلافات غير يسيرة.

٢ - إنّ الإنسان في المناطق القطبية في العادة «سمين» مكتنز بالدهن تماماً مثل الحوت ليقي نفسه غائلة البرد، والدببة مغطاة بمعاطف من الفراء، بينما هو في المناطق الاستوائية الحارّة نحيل هزيل أسود، وكأنّما اخترع لجلده مظلّة لتقيه حرارة الشمس.

٣ - إنّ سحالي الكهوف التي تعيش في الظلام لا وظيفة عندها للبصر ولا للألوان، ولهذا فهي عمياء وبلا لون، بينما سحالي البراري حادّة البصر وملوّنة.

٤ - إنّ أفواه الحيوانات اختلفت وتباينت حسب وظائفها: فم مزوّد بأسنان خنجريّة تقطع وتمزّق مثل النمر، وفم مزوّد بمنقار يلتقط مثل الطير، وفم مزوّد بخطاف يتشبث كما في دودة الأنكلوستوما التي تمسك بجدار الأمعاء، وفم مزوّد بخرطوم يمصّ كما في الذبابة، وفم مزوّد بإبرة تحقن كما في البعوضة، وفم مزوّد بمناشير وطواحين تطحن وتقرض كما في الحشرات القارضة.

وهكذا وجد دارون أنّ الأنواع الحيّة - وبخاصّة الحيوانية منها تتشابه تشابهاً كبيراً من حيث بنية الجسم، وتتفرّع أصنافاً عديدة يمتاز كلّ صنف منها بفوارق ملائمة كلّ الملاءمة لبيئته. مما حمله على الاعتقاد بأنّ الحياة تتلوّن وتتكيّف وتغيّر من تكوينها لتتلاءم مع بيئتها على الدوام.

ولكنه تساءل: كيف نفسّر القرابة من جهة، والتنوّع من جهة أخرى؟ وما السبب في بقاء أنواع النبات والحيوان في نموّ الخصائص المفيدة لها؟ فخطر له فرض مؤقت هو تطوّر هذه الأنواع، من نوع في غاية البساطة إلى الأنواع التي نراها اليوم.

ولما عاد إلى إنكلترا قرأ كتاب ملتوس Malthus في مسألة

السكان وكان يرى أنّ السكان حين لا يعوق تكاثرهم عائق يتضاعف عددهم في كلّ ربع قرن، فيزيد من فترة إلى أخرى بنسبة هندسية، في حين أنّ أسباب المعيشة لا تزيد إلاّ بنسبة حسابية، ولكن الحروب، والهجرات، والرذائل كلّها تعمل كقانون طبيعي من أجل تقليل عدد السكان، للحفاظ على التعادل بينهم وبين أسباب المعاش.

ففكر دارون أنّه لا بدّ أن يكون السبب وراء انقراض بعض الأحياء وبقاء البعض الآخر هو تنازع الحيوان على القوت، وأنّ الحياة «صراع في سبيل البقاء» وكان قد عني بتجارب مربي الحيوان، ورآهم يحصلون على أصناف جديدة بالمزاوجة بين التي يلاحظون فيها تغيّرات ضئيلة ملائمة، فقدّر أنّ الأفراد الذين يكتسبون وظيفة أو عضواً ملائماً لظروف حياتهم أقدر على الصراع من العاطلين عن تلك الوظيفة أو ذلك العضو، فيحسّن القسم الأول من نوعه، وينقرض القسم الآخر، فهناك إذن «انتخاب طبيعي» يشبه الانتخاب الصناعي، إلاّ أنّه خالٍ من القصد والنظام، فلا يدلّ على علّة التغيّر بل على أثره ونتيجته، ثمّ قدّر أنّ القرابة بين الأنواع المندثرة والأنواع الباقية تفسّر بأن هذه صورة عليا لتلك.

وانتهى دارون أخيراً إلى استنتاج أنّ الأنواع الحالية على اختلافها يمكن أن تفسّر بأصل واحد أو ببضعة أصول تمّت وتكاثرت وتنوّعت في زمن مديد بمقتضى قانون الانتخاب الطبيعي أو بقاء الأصلح، وهو القانون اللازم من تنازع البقاء، وقوانين ثلاثة ثانوية هي:

أولاً ـ قانون الملاءمة بين الحيّ والبيئة الخارجية.

ثانياً ـ قانون استعمال الأعضاء أو عدم استعمالها تحت تأثير

البيئة أيضاً بحيث تنمو الأعضاء أو تضمر أو تظهر أعضاء جديدة، تبعاً للحاجة.

ثالثاً ـ قانون الوراثة وهو يقضي بأنّ الاختلافات المكتسبة تنتقل إلى الذرية على ما يشاهد في الانتخاب الصناعي[1].

وتبعاً لهذه الأصول فقد ارتأت النظريّة الداروينيّة أنّ شجرة الحياة هي هكذا:

١ ـ مادة الحياة الأولى.
٢ ـ كائنات وحيدة الخلية.
٣ ـ كائنات عديدة الخلايا.
٤ ـ الديدان.
٥ ـ ذوات الحبل الظهري.
٦ ـ ذوات الهيكل الغضروفي.
٧ ـ البرمائيات.
٨ ـ الزواحف.
٩ ـ الثدييات.
١٠ ـ الإنسان.

وارتأت النظرية أنّ من الكائنات عديدة الخلايا ينحدر الإسفنج، والأحياء المائية الهلامية.

ومن الديدان تنحدر الرخويات والحشرات، والقشريات (كالجمبري).

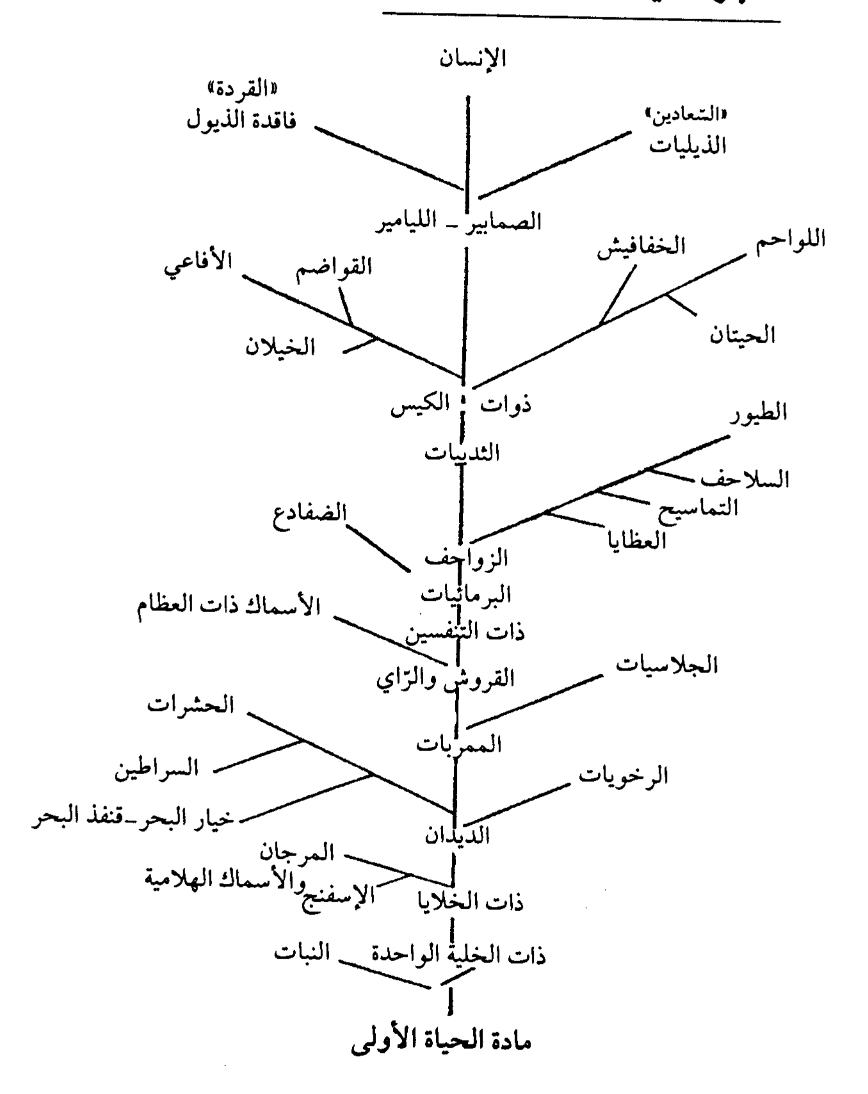
ومن ذات الهيكل الغضروفي تنحدر الأسماك العادية.

---

(١) للمزيد من التفاصيل راجع: "أصل الأنواع» تأليف تشارلز داروين ـ ترجمة إسماعيل مظهر.

ومن البرمائيات تنحدر الضفادع.
ومن الزواحف تنحدر التماسيح والسلاحف، والطيور.
ومن الثدييات تنحدر الحيوانات ذات الذيول وغيرها.
أمّا من الإنسان فلا ينحدر منه شيء، سوى الإنسان نفسه.

شجرة الحياة كما تخيلتها الداروينيّة



وقبل أن نناقش الأدلّة والبراهين التي أقامتها الداروينيّة على نظريتها هذه لا بدّ من عرض الأصول الأربعة في النظرية، عرضاً أميناً، لمعرفة مدى مطابقتها للعلم الحديث.

١
قانون : تنازع البقاء

تشرح النظرية الداروينيّة هذا الأصل الذي تعتقد أنّه ليس شيء أسهل من الاعتقاد بحيث «بدون ذلك يستحيل معرفة التوازن الحاكم على الأحياء» تشرحه بقولها: «إنّ هناك صراعاً أزليّاً ومستمرّاً بين الكائنات الحيّة في العيش، وإنّ البقاء إنّما يكون للأكمل والأقوى من المتنازعين، أمّا الأضعف فإنّه يتلاشى، لأنّه غير صالح للحياة».

وتضرب لذلك مثلاً بقولها: «إذا افترضنا وجود سرب من الأبقار الوحشيّة تسير في غابة متحدة كعادتها لطلب الغذاء، فإذا رأت مرعًى تزاحمت عليه، فالقوي منها يفوز بأطايب هذا المرعى، فيزداد قوةً على قوّته، أمّا الضعيف فإنّه يزادد ضعفاً على ضعفه.

وبإدمانها على هذا العمل، يزداد القوي قوةً واكتمالاً، أمّا أضعفها فإنّه يزداد ضعفاً، حتّى يتلاشى ويضمحل.

وهكذا عندما تضيق الحياة بنوع خاص من الحيوانات، ولا تجد مجالاً للاستفادة من الطعام بسبب وجود أنواع أخرى تستأثر به، فإنّ النوع الضعيف ينقرض، ويتلاشى».

أمّا رأي العلم الحديث في هذا الأصل فيتلخّص بما يلي:

١ ـ لا شكّ وأنّ هناك نوعاً من الصراع بين فصائل الحيوانات،

فالنزعة العدائية متأصّلة في كثير من أنواع الحيوان.

ولكن هذا يعني أنّ التوازن القائم بين الأحياء مستند إلى هذا الصراع. بل إنّ الكوارث الطبيعية والحوادث الخارجية غير المترقبة هي التي تصنع مثل هذا التوازن.

٢ ـ ولا ربط في ذلك بالضعف والقوّة. فقد تصاب بركة مياه كبيرة بجفاف مفاجئ مما يؤدّي إلى موت كافّة الحيوانات التي تعيش حولها، من دون فرق في ذلك بين النوع القوي، أو الضعيف. كما أنّه قد تجتاح منطقة معيّنة أوبئة حيوانية فتّاكة فتكتسح قسماً كبيراً من الحيوانات المختلفة في الضعف والقوّة.

إنّ تنازع البقاء لم يكن في أية فترة من التاريخ متصفاً بالعنف والوحشية التي يصفها دارون.

«أمّا التوازن الحياتي فإنّه حصيلة الضحايا التي يقدّمها كلّ نوع من أنواع الحيوان، بالكوارث الخاصّة أو العامّة. فإذا وضعت الضفدعة ألف بيضة مثلاً، فإنّه لا يفقس منها إلاّ عدد معدود وقليل جدّاً، أمّا البقيّة فإنّها تموت بالأمراض الخاصّة، أو تقضي عليها الأنواع الأخرى».

ولا ربط لذلك بقضية أنّ الضفدع الذي يموت له ذيل، أو لا ذيل له، كما لا ربط بقضية شفافية اللون، أو نعومته[1] والمثال الذي ذكرته الداروينيّة في قضية الأبقار، مورد جزئي لا يمكن تعميمه على أنواع الحيوان كلها.

---

(١) أصل الأنواع ص ٦١ تأليف الدكتور إميل كوينو ـ الأستاذ بجامعة جنيف.

٢

قانون : انتخاب الأصلح

في رأي الداروينيّة «فإنّ الطبيعة مجبولة على انتخاب الأصلح من الأحياء، والقضاء على الرديء، فما دامت الحياة معترك صراع من أجل البقاء، فإنّ الذي يخرج منتصراً إنّما هو الأصلح للبقاء، والأكثر احتمالاً للضغوط الخارجية».

وفي المثال الذي أوردته الداروينيّة في تنازع البقاء، نرى أنّه إذا انتقل هذا السرب من الأبقار إلى مسافة بعيدة مما اضطرّ إلى قطع طريق وعرة، فإنّه لا يقوى على اختراقها إلاّ الممتازون بالقوة، وشدّة الاحتمال فلا يصل إلى «المأمن» إلاّ الأقوياء، وهذا يعني أنّ نتيجة هذا التنازع كلّه سيكون: بقاء «الأصلح للبقاء» وفناء غير الأصلح، وكمثال أكثر وضوحاً نرى أنّه قد يحدث في بعض الأحيان أن تمرّ بعض المناطق بفترات من التوتر الطبيعي كنقص في موارد الغذاء أو جفاف في موارد المياه أو زيادة في نسبة الرطوبة، أو في درجة الحرارة أو انخفاضها، وتبعاً لهذا التغيّر القاسي تتأثّر الكائنات الحيّة التي تعيش في تلك المناطق والتي لم تتعوّد من الطبيعة مثل هذه الظروف؛ إلاّ أنّ القليل الأقل منها يظلّ حيّاً يقاوم باستماتة وبإصرار هذا التغيّر المعادي، وذلك بمزيدٍ من قوّة الاحتمال والتكيف مع هذه الظروف، إلاّ أنّ الموت يدركه بعد فترة غير طويلة يكون قد تسنّى خلالها لبعض أفراده أن ينجب بعض الذرية التي لم يقدر لمعظمها البقاء ويتحتّم على الناجين المرور بمرحلة مواجهة عنيفة مع عوامل الطبيعة القاسية المعادية.

ولكن كيف تسنّى لبعض هذه الأفراد البقاء على قيد الحياة في الوقت الذي هلكت فيه معظم أترابها؟

تجيب الداروينيّة: «إنّه لا بدّ لهذه الأفراد من ميزة، مهما بدت تافهة وضئيلة، امتازت بها عن سائر أترابها، فأعانتها على مقاومة هذا العداء الطبيعي.

وعلى ذلك فقد استطاعت الأنواع التي تميّزت بهذه الاختلافات أن تصمد أمام عاديات الطبيعة. وأكثر من ذلك فلقد استطاعت أن تجمع هذه الاختلافات البسيطة على طول الزمن لتضمها إلى صلب تكوينها، ومن ثمّ تورثها لأبنائها.

وبذلك يبقى الأصلح، ويمتدّ عبر أبنائه، بينما يهلك غير الأصلح».

* * *

هكذا تقول الداروئيّة فما هو رأي العلم الحديث في ذلك؟

يصرّح العلم الحديث:

إنّ الموت قضيّة قدريّة مفروضة على الكائنات، ولا يمكن تجنّبه بأي شكل من الأشكال، والأمر الممكن هو: تأخيره لفترة من الوقت، وموضوع بقاء بعض الأفراد تحت قساوة الظروف الطارئة، إنّما يعود إلى قوّة الأجهزة العاملة في أجسامها التي قد تكون مشابهة لأجسام بقيّة الحيوانات، ولا ربط له بميزة، أو عدم ميزة.

١ ـ ففي المثال الذي ذكرته الداروئيّة في قضية الأبقار ليس هناك ممتاز وغير ممتاز، إنّما هناك قوي وضعيف، ونفس القوي الذي استطاع أن يصل إلى المأمن، يعود بعد فترة فيصبح ضعيفاً، ولا يورث أبناءه هذه القوة، بدليل أنّهم يعودون ضعفاء بعد انتهاء فترة قوّتهم على الأرض.

وأيضاً، فإنّه قد تضرب الأعاصير منطقة معيّنة فيموت الشيوخ

بينما يبقى الشباب، وهذا لا يعني أنّ الشباب سيشكلون بعد موت آبائهم وبقائهم على قيد الحياة نوعاً جديداً من البشر. لأنّ الأمر هنا ليس مرتبطاً بأيّة ميّزة إطلاقاً.

٢ - إنّ التبدلات التي تطرأ على الأحياء من جراء التوترات الطبيعية الحادّة، ليست إلاّ تغييرات طفيفة جدّاً، بحيث لا يمكن إسناد قضية انتصارها على بقيّة الأحياء إلى مثلها.

مثلاً قد تحدث تغييرات في بيئة معيّنة للجرذان، وبعد مرور ألف سنة وانقراض الكثير منها، تظهر تبدّلات طفيفة في القسم الخلفي من عنق بعض أنواعها، فهل يمكن أن ينسب بقاء الأنواع السابقة على ظهور هذا التبدّل الطفيف دون الأنواع المنقرضة، إلى التغيير البسيط الذي قد لا يتجاوز ١/ ١٠٠ من المليمتر في عنقها؟

يقول الأستاذ «إميل كوينو»: «بما أنّ التبدلات التي قد تطرأ على الأحياء بفعل عوامل المحيط تكون طفيفة في الأغلب فإنّ تأثيرها أيضاً يكون طفيفاً، ولهذا فلا يجوز أن تجري تحولات كبيرة في انتخاب الأصلح والأكثر استعداداً. وليس هناك من يمكن أن يقبل بأن طول «قرن» بعض أفراد الغزال بمقدار ٣ مليمترات، أو ضخامة كعب رجلها بنفس المقدار له تأثير على مصيرها، بحيث يمنع من انقراضها. أو يعجل في ذلك.

إنّ انتخاب الأصلح، ليس مسابقة الخيل، التي يكون لطول عنق الخيل، ولو بمقدار بسيط، تأثيره الخاص على نتائج المسابقة، وعليه فإنّ التبدلات الكبيرة هي التي يمكن أن يحسب لها الحساب في انتخاب الأصلح، من دون أن يكون للامتيازات الفردية أي أثر في ذلك».

٣ ـ إذا جاز الاعتماد على بعض الموارد الجزئية لفرض تعميم كلّي، فإنّ من الجائز أيضاً ادعاء أنّ الطبيعة إنّما تنتخب غير الأصلح بالاستناد إلى بقاء الكثير من أنواع غير صالحة، وذلك لأنّنا نشاهد النباتات الأولية، والحيوانات وحيدة الخلايا، والزواحف، وغيرها من الأنواع الدنيا لا تزال موجودة بالرغم من أنّها أنواع غير صالحة بالقياس إلى الفيلة والقردة والإنسان.

٤ ـ إذا كان الأصلح هو الذي يبقى، فلماذا تنتكس الأحياء من أحياء «أصلح» إلى أحياء غير «أصلح» أي لماذا لا يبقى الأصلح على «أصلحيته» إلى الأبد، ما دامت الأصلحية هدف الطبيعة؟

نجد في الحفريات حيوانات أثرية كثيرة، كلّها انقرضت بالرغم من ضخامة الجثّة، وكبر الحجم، ومناعة الجسم التي كانت تتصف بها، بينما بقي الغزال والهرّ والكلب، وهي حيوانات ضعيفة صغيرة الجثّة، مثلاً نرى أنّ الديناصورات، وكانت حيوانات ضخمة للغاية، بلغ وزن بعض أنواعها حوالي ٨٥ طنّاً وبلغ طولها ٢٧ متراً، وقد ظلّت تسود المملكة الحيوانية كلّها زهاء ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ عام، قد انقرضت كليّاً ولم تعد لهذه المخلوقات الضخمة من وجود الآن بالرغم من إتقان البنية، وكبر الجثة، لماذا؟

ترى لماذا لم تنتخب الطبيعة هذه الحيوانات لتبقيها، وانتخبت .. الخنفساء، والجرذان، والبعوض وما شابه ذلك التي لا تزال تعيش وتزاحمنا في بيوتنا.

٣

قانون : الملاءمة مع المحيط

ويعني هذا القانون أنّ الوسط الطبيعي، وضرورات المعاش، تؤثر على ظهور اختلافات كبيرة بين الأنواع.

فمثلاً.. «المعروف عن الأسد الآن أنّه حيوان من فصيل آكل اللحوم، وله أنياب وبراثن قويّة لاضطراره إلى تمزيق فريسته بالأنياب والبراثن، فلو فرضنا أنّنا وضعنا نوعاً من الأسد آلافاً من السنوات المتوالية في وسط لا يمكنه من الافتراس ويجبره على الاستفادة من النباتات، لاضطر بحكم الضرورة إلى تعاطي أكل النبات.

وبذلك تبطل وظيفة أنيابه الحادّة وأظفاره القويّة، فتضعف لإهمالها بتوالي الأحقاب وتضمر، وتحدث له أجهزة أخرى أصلح لمعيشته الجديدة ظاهراً وباطناً، كأن يتغير مثلاً شكل أسنانه وتطول أمعاؤه لتحاكي أمعاء أكلة الحشائش من الحيوانات، إلى آخر ما هنالك من تغيرات جذرية يحتاج إليها في حياته المعيشية الجديدة.

حتّى أنّه لو فرض أنّ الحصول على النباتات لا يتسير له إلاّ بالطيران، فلربما خرج له جناحان للغرض ذاته».

وتضيف الداروينيّة قائلة: «إنّ كافة الخصائص التي نجدها في الوقت الحاضر في الحيوانات، إنّما هي حصيلة الحاجة إلى ذلك لا أكثر. حتّى أنّ الغشاء الممتد بين أصابع الإوزات إنّما هي نتيجة لحاجتها إلى السباحة دون باقي أنواع الطيور الأهلية».

* * *

ويصرّح العلم الحديث تعليقاً على هذا الأصل بقوله:

١ ـ إنّ تغيير الشكل الخارجي للكائن بسبب البيئة أمر ممكن، بل هو أمر واقع فعلاً، فألوان الأجسام البشرية تخضع للوسط الذي تعيش فيه، فحيث تكون الرطوبة والحرارة معاً يكون لون البشرة أصفر، وهذا ما يحدث لأقدامنا المحبوسة في الأحذية، وهذا أيضاً ما يحدث للصينيين وسائر الأمم التي تعيش في الأقاليم التي تقع في جنوب شرقي آسيا، أمّا في أوروبا حيث ضوء الشمس أخفّ وقعاً مما هو في إفريقيا فإنّ البشرة تكاد تشف، ولذلك يبدو الدم الأحمر تحتها واضحاً إذ ليس في هذه البشرة سوى صبغة خفيفة، ولكن عندما يعيش الأوروبي في أقصى الشمال، حيث يدوم الثلج على الأرض نحو تسعة أشهر فإنّ بشرته تقاوم البياض في هذا الثلج بشيء من السمرة وهذا هو ما نجده عند الإسكيمو، ولون العينين والشعر يتبع لون البشرة من حيث الخفّة والثقل.

ولكن البيئة، لا تؤثر في جوهر الكائنات الحيّة بحيث تحوّل القرد فيلاً أو تحوّل الإنسان حصاناً والكلب خفاشاً.

يقول الدكتور سوريال: «إنّ رأي علماء الطبيعة في قضية التطور يتلخص في أنّ جميع العوامل لا يمكنها أن تغير أي نوع من الأنواع الحيّة إلى نوع آخر، وكلّ التغييرات التي يمكنها أن تحدثها فإنّما هي سطحيّة لا تمسّ التركيب الجوهري للحيوان أو النبات، وبعضها ـ مرضية ـ تقود إلى انقراض النوع، ولقد قال العالم الإيطالي روزا .. إنّ الاختيار الاصطناعي الذي جرّبه بنو الإنسان خلال الستين سنة الماضية دليل عظيم ضدّ نظرية دارون[1]».

---

(١) تصدع مذهب دارون والإثبات العلمي لعقيدة الخلق.

٢ ـ تفيد التجارب الكثيرة التي أجراها علماء كثيرون في السنوات الماضية على أنّ البيئة لا تستطيع بأيّ شكل من الأشكال أن تؤدي إلى ظهور أو ضمور أعضاء في الكائن:

أ ـ فقد أجرى الدكتور (بن) تجارب عديدة على «ذباب الخل». فوضعها طوال ستّة وستين جيلاً في ظلمات كاملة، ولكن النسل الأخير حينما وضع في النور لم يكن يختلف في أجهزة عينه عن الجيل الأول إطلاقاً.

وقد يقول قائل بأن تبدّل أجهزة العين، أو ضمورها لا يمكن أن يحدث في ستين أو سبعين جيلاً، فالأمر يحتاج إلى فترة طويلة جدّاً، ولكن من الطبيعي أن البيئة إذا كان لها تأثير كبير في فترة طويلة، فلا بدّ أن يأتي هذا التأثير بصورة تدريجية، أي أن يحدث على فترات.. وهذا يعني أنّ ٦٩ جيلاً يكفي على الأقل لإحداث بعض التغيرات في أجهزة العين.

وهذا ما تثبت تجربة «بن» خلافه.

ب ـ في أعماق المغارات السوداء، والكهوف المظلمة تعيش عشرات الأنواع من الكائنات التي تتمتّع بعيون حادّة البصر، بالرغم من أنّها لم تبصر النور إطلاقاً.

ج ـ تعتقد الدارونيّة أنّ «بالن» وهو حيوان ثديي ضخم، يعيش في الماء، ويتمتّع بجناحين طويلين، وأرجل قصيرة، وأنّه كان حيواناً بريّاً، وأنّ أجنحته نتاج البيئة التي يعيش فيها.

ولكن من المشاهد أنّ هناك في أعماق الماء، وفي نفس الشرائط الخاصّة التي يعيش فيها «بالن» تعيش عشرات الأنواع من الكائنات البحريّة التي لا تزال تتمتّع بأرجل طويلة، ويدين كاملتين، من دون

أن تظهر ريشة واحدة على يديها، أو رجليها.

د - إذا كان الغشاء الموجود بين أصابع الإوزات نتيجة لحاجة محيطها إلى ذلك، فلماذا نرى عشرات الأنواع من الطيور التي تعيش في ذات الشرائط التي تعيش فيها الإوزات وليس لها مثل هذا الغشاء؟

٤

قانون: الوراثة

ترى النظرية الدارونيّة: إنّ الصفات العرضية التي تحدث في الآباء بواسطة اختلاف البيئة والمحيط، تنتقل إلى الأبناء، فينشأ الأبناء مختلفين فيما بينهم ويظلّ الاختلاف يقوى على مرّ الأجيال والقرون، حتّى تتحوّل من اختلافات عرضية، إلى اختلافات جوهريّة توهم الإنسان بأنّها اختلافات نوعيّة من أصل الخلقة، وهي في الحقيقة اختلافات بسيطة، في مبدئها توالت عليها الحقب حتّى ازدادت تأصلاً في الكائن فأدّت إلى مباينته مع أصله الذي نشأ منه.

وتعتقد الدارونيّة على ضوء ذلك: أنّ الحمار والحصان من نوع واحد وإنّما اختلف الحمار عن الحصان تبعاً لمقتضيات الوسط الذي عاش فيه الحمار، وتبعاً للنضال المعيشي الشديد الذي بُلي به.

يقول دارون: «إذا ظهر تغيير في مرحلة ما في جسم الكائن، فإنّ نفس ذلك التغيير سيظهر في أبنائه، في نفس المرحلة التي ظهرت في أبيه».

* * *

والملاحظات التي يبديها العلم حول هذا القانون هي:

١ ـ لا شكّ أنّ خصائص الآباء الأصلية كلّها تنتقل إلى الأبناء بالوراثة خاصّة ما يرتبط منها بقضايا النوع، فنواة الجوز لا تنبت إلاّ الجوز، ونواة النارنج لا تنبت إلاّ النارنج، و «منيُّ» الخيل، لا ينمو منه إلاّ الخيل وهكذا...

وعامل الوراثة الذي ينقل الصفات من جيل إلى جيل إنّما هو وحدات تناسلية تسمّى «الأمشاج» منها ما هو مذكّر وهو الحيوانات المنويّة وحبوب اللّقاح في عالمي الحيوان والنبات، ومنها ما هو مؤنّث وهو البويضات في كلا العالمين.

والمسؤول الأول عن حمل الصّفات الوراثيّة عبر الأجيال هو: الصبغيات (الكروموسومات)، والصبغيات هذه عبارة عن أجسام خيطيّة الشكل توجد في نواة الخلية وهي محمّلة بحبيبات دقيقة تشبه المسبحة وتعرف باسم المورثات (الجينات) ولكلّ مورثة حجم ثابت ومكان محدّد على طول الكروموسوم، ويوجد بنواة الخلية البشرية حوالي ٢٠/٠٠٠ جسيمة توريث يحمل كلّ منها صفة وراثية واحدة فقط.

وتحتوي نواة الخلية على عدد ثابت من الكروموسومات وهي دائماً في أعداد زوجيّة، فعددها في نواة الخلايا البشرية ٢٣ زوجاً أي ٤٦ كروموسوماً، وفي نواة خلية الأرنب ٢٢ زوجاً، وفي الكلاب ١١ زوجاً، وفي الدجاج ٩ أزواج، وفي البصل ٨ أزواج، وفي البسلة ٧ أزواج، وفي ذبابة الفاكهة الأميركية ٤ أزواج، وفي دودة الأسكارس زوجان فقط. ويرتفع هذا العدد ليصبح ٣٠ زوجاً في أنوية خلايا جسم الحصان.

ويتركب جسم كلّ مورث من الحامض النووي: «دايزوكس ريبو نيو كليك أسد». وهذا الحامض هو حامل لواء الوراثة، واكتشاف هذا الحامض تمّ في عام ١٩٥٢ بمعامل الكليّة الملكيّة بلندن، أي بعد موت دارون بسبعين عاماً، وذلك بعد ان اخترع البشر المجهر الإلكتروني الذي يكبّر أكثر من مليون ضعف، أي أنّه يستطيع أن يكبّر النحلة لتكون في حجم سفينة عابرة للمحيط.

وقد اكتشف أنّه يتركّب جزيء الحامض النووي «دايزوكس ريبو نيو كليك أسد» من حوالي ١٠٠,٠٠٠ ذرّة من عناصر الفحم والفوسفور والأوكسجين والأيدروجين والأزوت مرتبطةً بعضها مع بعض، في نظام غاية في الدقّة والجمال، وأقرب شبه يمكننا أنّ نتصّور شكل هذا الجزيء هو سلم المئذنة، فلقد بني هذا الجزيء بشكل حلزوني على شكل درجات متراصّة هي عبارة عن مركبات آزوتية ذات أربعة أنواع متباينة، وأوّل هذه الأنواع مرتبط ـ تمام الارتباط ـ بثانيها لتصنع سلالم معيّنة، كذلك يرتبط ثالثها برابعها لتصنع سلمة من نوع آخر، ولكلّ سلّمة من هذه السلالم مكانها المقرّر وزاويتها المحدّدة على طول هذا السلّم الطويل الذي لا تقل عدد لفاته حول نفسه عن عشرة ملايين لفة.

والاختلاف في تنظيم السلالم من الأنواع الأربعة من مركبات الأزوت وهي: الأدنين، الثايامين، الجوانين، السيتوسين. هو المسؤول الأول والأخير عن اختلاف الكائنات، فإنّ أقلّ اختلاف في زاوية ميل أي سلمة، مما قد لا يلاحظه أكثر المهندسين دقّة، يعني خلق كائن من نوع جديد. كما أنّ عددها وكذلك عدد لفاتها يعتبر من أسباب تباين أنواع الكائنات.

ولكن ما الذي يدفع الجزيئات لتسلك هذا السلوك بالذات

لتخلق هذا النوع من الحياة، أو ذلك النوع، من دون أن تخطئ؟

قد لا نكون مخطئين إذا قلنا بأنّ لهذه الجزيئات عقلاً إلكترونياً يختزن من الأفكار والتكوينات ما لا حصر له، ليصدرها في الوقت المناسب، فيكفل استمرار الحياة في الخطّ المحدّد له.

ويصرّح العلماء بأنّ جزيئات هذا الحامض لا تمنحنا الصفات الوراثية فحسب، بل إنّها تستمر في الهيمنة على كلّ وظائف الجسم حتّى الممات، فما من قطرة عرق تسقط من جبين الإنسان، أو شعرة تنبت في أخمص قدمه إلاّ نتيجة لسلسلة من التفاعلات الكيماوية المعقّدة أصلها في البداية أمر أصدره جزيء هذا المركب في هدوء.

وعندما يحين الوقت كي تنقسم الجزيئات نجد أنّ هذا السلم الحلزوني الطويل يدور حول نفسه عشرة ملايين مرّة ليفكّ نفسه من «لفاته»، ثمّ لا يلبث أن ينشقّ طولياً من منتصف السلالم، فينقسم إلى نصفين متماثلين تماماً يحتوي كلّ منهما على درابزين وأنصاف السلالم التي شقّت من منتصفها، وفي هذه الأثناء تعلن حالة التعبئة العامّة في الخلية ويدبّ فيها نشاط غير طبيعي، وذلك لتوفير أكبر قدر من المواد الغذائية اللازمة لعملية البناء العاجلة، ومن خلال الغلاف النووي الذي يغلّف النواة تندفع جزيئات المواد الغذائية الأساسية كالسكر، والفوسفات، والأزوت، نحو نصفي السلالم المنشطرة، وكل جزيء من هذه المواد يعرف المكان المحتاج إليه تماماً، فجزيئات السكر والفوسفات تصطف إلى جانب بعضها البعض لتصنع درابزيناً جديداً، أمّا جزيئات المواد الأزوتية سالفة الذكر فإنّها تقوم بتكملة أنصاف السلالم التي انشطرت لتصير سلالم كاملة.

وهكذا يظلّ النشاط على أشدّه حتّى يتكون سلّمان جديدان كلّ واحد منهما صورة طبق الأصل من السلّم الذي انشطر، ويسري في أوصالهما في هذه الحالة قوّة خارقة تجعل كلاً منهما يدور حول نفسه عشرة ملايين لفة، ليصير على شكل حلزوني.

وإذا كانت القضية عوامل الوراثة قضية أنواع أزوتية معيّنة يرتبط كلّ منها بالثانية ارتباطاً وثيقاً ويكون لكلّ منها مكان مقرر، وزاوية محدّدة بحيث إنّ الصفات إذا كانت محمّلة على هذه الأنواع الخاصّة، تكون وراثية، وإذا لم تكن محمّلة عليها لم تكن وراثية، فإنّ الصّفات المكتسبة عن طريق عوامل المحيط والبيئة لن تكون وراثيّة بأيّ شكل من الأشكال ومن ثمّ فإنّها لن تورث قطعاً.

إنّ دارون الذي ذهب إلى وراثة عوامل المحيط لم يكن يعرف أيّ شيء عن جينات الوراثة، هذه الجينات التي لا تتأثّر بعوامل المحيط، ولذلك فهي لا تغيّر عالمها الخاص بأيّة قيمة كانت. والتجارب العلميّة قد أكّدت حتّى الآن عدم إمكان توريث الصفات الاكتسابية. ويستطيع أيّ واحد منّا البرهنة على ذلك بتجاربه الخاصّة، فنحن نعرف أنّ الخبرات التي يكتسبها الآباء خلال أيّام حياتهم كالخبرات العلمية والأدبية والفنية والصناعية لا تنتقل إطلاقاً إلى أولادهم بالوراثة. فلا يولد ابن الطبيب طبيباً، ولا ابن الشاعر شاعراً، ولا ابن الرسّام رسّاماً.

٢ ـ أثبتت تجربة أجراها «مندل» على نبات البازاليا أنّ الصفات الاكتسابية لا تنتقل حتّى في النباتات.

٣ ـ أجريت تجارب على ألف وخمسمائة فأر قطعت ذيولها في أكثر من خمسة وعشرين جيلاً، ولكن حتّى الجيل الأخير كانت

صغاره تولد مع ذيول عادية تماماً، ولم يعرف مورد واحد أن ولد فأر بلا ذيل[1].

٤ ـ منذ الخليقة وحتّى الوقت الحاضر تتعرّض النساء لعملية خرق غشاء البكارة، ولكن لم ينتقل ذلك حتّى الآن إلى الأخلاف منهنّ ـ فكلّ أنثى تولد فهي تولد مع غشاء البكارة مع أنّ أمّها، وأم أمّها إلى حواء قد تمّ خرق أغشية بكارتهن.

٥ ـ منذ عشرات القرون، ويمارس المسلمون واليهود عملية «الختان» الذي هو عبارة عن قطع الجلدة الزائدة على عضو الذكورة، ولم يولد للآن جيل واحد لا يحمل هذه الجلدة الزائدة.

٦ ـ أجريت تجارة على عدّة أرانب حوامل، فأطعمت محلولاً من النفتالين والزيت المغلي، ممّا سبّب ظهور غشاوة على عدسة عيون صغارها، ولكن الطبقة الثانية، بعد الطبقة الكدرة العيون، كانت تتمتّع بعيون سليمة تماماً.

٧ ـ أجرى الدكتور «سوستي» تجارب على عدد كبير من الفأر عام ١٩١٥، فجعل بعضها في غرفة ذات حرارة «٢٢» درجة فوق الصفر، وجعل بعضها الآخر في غرفة ذات حرارة «٤» تحت الصفر، وأبقاهما في تلك الحالة مدّة أربعة أشهر ولاحظ أنّ الجيل الأوّل بعد التجربة كان يختلف من حيث طول الأرجل والذّيل، فقد كانت صغار الفأر الذي عاش في حرارة ٢٢ درجة أطول ذيولاً، وأطول أرجلاً من صغار الفأر الذي عاش في حرارة ٤ ـ تحت الصفر، ولكنّ الجيل الثاني كان يتمتّع بأرجل وذيول عاديّة تماماً.

٨ ـ أجرى الباحث ماك دوول في عام ١٩٢٤ تجارب عديدة

---

(١) بحث درباره داروينيسم ص ٥٢..

لنقل الصفات المكتسبة إلى الأجيال اللاحقة، فربّى عدة مجموعات من الفأر على قطع طريق ملتوٍ للوصول إلى محل الطعام ولكن بما أنّ الطريق كان ملتوياً بعض الشيء، فإنّ معرفة الطريق لم ينتقل إلى الأجيال التالية بالرغم من إجراء التجارب على خمسة أجيال متتالية.

وإذا كانت الداروينيّة بأصولها الأولية الأربعة تعتمد اعتماداً كليّاً على قضيّة توارث الصفات المكتسبة فإنّ انهيار هذا الوهم، علميّاً وتجريبيّاً، يعني انهيار الداروينيّة بصورة كليّة.

ولقد اضطر أصحاب النظريات المادية، بعد ثبوت عدم وراثة الصفات المكتسبة، إلى وضع فرضية جديدة في قضية التوارث مما أكسب الداروينيّة بعد هذه الفرضية صفة «الحديثة» فصارت الداروينيّة المنهارة بعد إضافتها: «نيوداروينيسم». NEW DARWINISM، وهذه الفرضية هي فرضية: نشوء الأنواع عن طريق الطفرات، أي عن طريق الصدفة.

وبطل هذه الفرضية الجديدة هو «سوفروا» الذي اعتقد بها سنة ١٨٣٧، ولكنّها تطورت على يد الهولندي هـ. دي. فريس (١٨٤٨ ـ ١٩٣٥) وقد أعلن عنها ١٩٠١، فأصبح التطوّر العضوي والنوعي يعزى إلى الطفرات التي تحدث بالأفراد فجأة فتغير من أحوالهم وتراكيبهم الشيء الكثير، ممّا يؤدّي إلى الاختلاف بين الأفراد، والتقسيم إلى أنواع مختلفة، وتؤكّد الداروينيّة الحديثة أنّ هذه الطفرات قابلة للتوريث.

والتفسير الذي تقدمه الداروينيّة الحديثة، للطفرة هو: إنّ إحدى المورثات (الجينات) تصيبها فجأة، ولغير سبب معلوم، تغييرات أساسية تجعلها تكتسب خواصّ جديدة وصفات لم تكن معهودة

فيها قبل أن يعتريها هذا التغيّر المفاجئ.

ونظراً لأنّ التغييرات تصيب المورثات، فإنّ هذه الاختلافات المفاجئة تنتقل إلى الأجيال اللاحقة.

ويصرح أصحاب هذه النظرية بأنّ أسباب حدوث الطفرة ما تزال غامضة، ولذلك فإنّها تعتقد أنّ ظهور الطفرات إنّما هو صدفي ولا يُعلم متى؟ ولماذا تظهر؟ وإن كان بعضهم يدّعي بأنّه أمكن في السنوات الأخيرة إحداث طفرات صناعية في المعمل، وذلك بتعريض الكائنات الحيّة، نباتية كانت أم حيوانية، لأنواع معيّنة من الإشعاعات كأشعة X أو الأشعّة فوق البنفسجية، وقد أمكن إحداثها أيضاً ـ كما يدعون ـ بتأثير بعض المواد الكيماوية، بل إنّه أمكن إحداثها بتعريض بعض الكائنات بصفة مستمرة لدرجات حرارة فوق المعدل المألوف لها.

ويعتقد هؤلاء أنّ الطفرات التي تصيب بعض الأفراد على نوعين:

أ ـ التغيير الفجائي الذي يتمّ في جيل واحد، ويستمرّ في الأجيال الأخرى بلا تأخير.

ب ـ التغيير خلال جيلين أو ثلاثة أجيال أو أكثر.

وتعتبر الداروينيّة ظهور الرئة، وغدد الشعر، من النوع الأول، فتقول: «أكثر الأسماك لها كيس يتصل بالمريء ويكون دائماً مملوءاً بالهواء، والغرض منه تخفيف جسم السمكة عندما تريد الصعود إلى السطح وإفراغه من الهواء عندما تريد الغوص، وهذا الكيس هو أصل الرئة في الحيوانات الأرضية، والرئة نشأت عن طريق

المصادفة تقريباً لوجود هذا الكيس قبلاً في الأسماك كما نشأ الثدي عن وجود غدد الشعر الدهنية[1].

* * *

هذا هو كلّ ما في الحقيبة الداروينيّة عن الطفرات الصدفية التي تعتبر تصحيحاً «نظرياً» لنظرية التطور العضوي. فما هو رأي العلم الحديث في ذلك؟

١ - يقول العلماء: إنّ تفسير الطفرات بالصدفة تفسير غير علمي، ذلك لأنّ الطفرة كظاهرة طبيعية بدون الكشف عن أسبابها ليست لها قيمة علمية فهي مجرد ادعاء.

«ويكاد العلماء يجمعون على أنّ فكرة الاستثناء أو الصدفة وليدة الجهل بالقوانين، إذ لا يلجأ المرء إلى تفسير وقوع بعض الحوادث إلى الصدفة إلاّ عند عجزه عن تفسير ما يرى، وحينئذٍ ليست الصدفة إلاّ مقياساً للجهل، أو ظاهرة نجهل بعض ظروفها، ويدلّ على ذلك أنّ ما يعدّه الجاهل صدفة ليس كذلك في نظر العالم»[2].

«وليس جهلنا للقوانين معناه أنّها غير موجودة، وإنّما معناه أنّ الطبيعة تتكوّن من مجموعات من الظواهر التي تخضع كلّ منها لقانون محدّد تحديداً ضرورياً. وقد تتداخل هذه المجموعات في لحظة معيّنة فتؤدّي إلى نتائج غير متوقّعة، دون أن تكون أقلّ ضرورة من النتائج المألوفة، ويمكن توضيح ذلك بالمثال الآتي: يمرُّ رجل في طريقه متجهاً إلى عمله، ولا شكّ في أنّ هناك أسباباً دفعته إلى السير في هذه الطريق في مثل هذه الساعة، حقّاً إنّنا نجهل هذه

---

(١) نظرية التطور وأصل الإنسان ص ١٣٩-١٤٠.

(٢) المنطق ومناهج البحث ص ٩١.

الأسباب ولكنّه يعلمها، وفي الوقت نفسه يوجد عامل يحمل أحجاراً ويصعد بها إلى طابق في أحد المنازل التي توجد في ذلك الطريق، وهو يخضع في صعوده وهبوطه لقوانين محدّدة، ومن الطبيعي أنّ كلاً من الرجلين لا يفكّر في صاحبه، بل يبدو أنّ كلاً منهما يعيش في عالم مستقل عن عالم الآخر، ومع ذلك يفلت الحجر من يد العامل لأسباب يعلمها أو يجهلها فيقع على الذي كان يمرّ في الطريق فيقضي عليه، وتبدو الحادثة كما لو كانت وليدة الصدفة، لكن الحقيقة هي أنّنا نجد هنا مجموعتين من الظواهر يخضع كلّ منهما لأسباب محدّدة، وكان من الممكن أن يسلك كلّ منهما طريقها، دون أن تتداخل مع الأخرى وذلك بأن يتقدّم أو يتأخّر مرور السائر في الطريق لحظة واحدة قبل أو بعد سقوط الحجر من يد العامل[1].

إذن فتفسير الطفرة بالصدفة تفسير بالجهل.. لا أكثر.

٢ ـ إذا جاز تفسير الطفرات بالصدفة، فلماذا لا يجوز تفسير ظهور الأنواع المختلفة رأساً، أي بلا سابق كائن تطور منه بالصدفة كذلك؟.. لماذا تخضع الظواهر كلّها لتعليلات منطقية، بينما تنفلت الطفرة عن أيّ تعليل منطقي؟

٣ ـ إنّ التغييرات التي تحدث بالطفرة، عن طريق أشعة X، والأشعّة فوق البنفسجية، وما شابه ذلك إنّما هي تغييرات ظاهرية، لا تمسّ الجوهر، فليس بالإمكان مثلاً أن ينقلب الكلب تحت تأثير أيّ نوع من الأشعّة، إلى قرد، فكلّ الطفرات المشاهدة حتّى الآن في الكائنات، بالطرق الطبيعية لم تكن تمسّ الجوهر، وكلّ ما هنالك أنّ

---

(١) المنطق ومنهاج البحث ص٩٢.

بعض أقسام الكائنات كبعض القرود تصاب بتغيير دفعي في منطقة ذيلها، أو وراء آذانها لا أكثر من ذلك إطلاقاً. ويعترف بذلك الدكتور «إميل كوينو» حيث يقول: «بالرغم من أنّ الطفرة هو التفسير الوحيد الذي يمكن ذكره في قضية ظهور الأنواع ولكن لم يلاحظ حتّى الآن مورد واحد تأتي الطفرة بعضو جديد في الكائن، أو تغيّر من جوهره[1].

ويضيف: «إنّ الطفرات إنّما تحدث عن طريق سلسلة من العمليات الصدفية»[2].

ونحن لا ندري كيف يمكن أن يظهر عضو جديد في الكائن عن طريق الصدفة في الوقت الذي نعرف ما يحتاج إليه «عضو جديد» في الكائن، من عشرات أنواع التغيير.

لنفترض أنّ «عيناً ما» ظهرت في الكائن فجأة ومن طريق الصدفة فهل يستطيع الكائن أن يرى بها فجأة؟

لا ... طبعاً. لأنّ الرؤية - ليست عملية بسيطة تقوم بها العين، فإذا فرضنا أنّ العين ذاتها - أي هيكلها الخارجي - ظهرت فجأة، فما الذي يزوّدها بالطبقات التسع المنفصلة التي تتكوّن الطبقة الأخيرة منها من ثلاثين مليوناً من الأعواد، وثلاثة ملايين من المخروطات؟

وما الذي يزوّدها بملايين من الأعصاب التي تصحّح الإبصار بوضعها الطبيعي؟

---

(١) أصل الأنواع، تأليف إميل كوينو ص ١٣٥.

(٢) أصل الأنواع ص ١٣٦.

وما الذي يربطها ببقيّة الأعضاء لتنسق أعمالها معها؟ حتّى تستطيع أن تبصر في الثانية أكثر من ٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٥٠٠ من الاهتزازات اللامعة؟

ولنفترض أنّ الطيور، إنّما كانت كائنات غير طائرة ولكنّها حصلت فجأة على الأجنحة، ولكن هل يكفي الجناح للطيران؟

إنّ الطيران عملية تحتاج إلى توافر عوامل كثيرة مثل التوازن النسبي بين الجثّة وبين الجناح، ومثل انسجام الجناح مع الأعضاء وعشرات العوامل الأخرى.. فكيف يمكن أن يحدث كلّ ذلك صدفة؟.

٤ ـ إنّ الطفرات لا تورَّث إلاّ بنسبة ضئيلة جدّاً إذا كان التزاوج بين كائنين لكلّ منهما طفرة في ذات العضو التي للآخر.

مثلاً إذا أصيب فأر بسقوط ذيله بالطفرة، فإن صغاره إنّما يمكن أن تأتي بلا ذيل إذا كان تزاوجه مع فأرة مصابة هي الأخرى بطفرة «سقوط الذيل» ضمن شروط خاصّة وقليلة التوافر جدّاً مثل وجود جو حراري واحد، ومثل عدم تبدّل المحيط ... إلخ.

أمّا نسبة وراثة الطفرات في غير هذه الصورة فهي واحد في عشرة آلاف. فالفأر الذي يصاب بسقوط ذيله بالطفرة، إذا تزاوج مع فأرة لها ذيل، فإنّه يحتاج إلى إنجاب عشرة آلاف من الأجيال ليمكن أن يرث جيل واحد منه عدم وجود ذيل له.

ومع هذا الوضع فإنّ عمر الأرض لا يكفي بأيّة صورة من الصور لظهور الأنواع الكثيرة التي توجد عليها.

إنّ المعدل المعقول لعمر الأرض هو ألفا مليون سنة[1] فكيف جاءت الحياة في هذه المدّة القصيرة في شكل عشرات الملايين من أنواع الحيوانات، وعشرات الملايين من الحشرات وعشرات الملايين من أنواع النباتات؟

وكيف انتشرت هذه الكمية الهائلة على سطح الأرض في كل مكان.

ثمّ كيف جاء من خلال هذه الأنواع الحيوانية ذلك المخلوق الأعلى الذي نسمّيه «الإنسان»؟

ولا نعرف كيف يمكن الاعتقاد بذلك في حين أنّنا نعرف جيداً أنّ النظرية الداروتيّة تقوم على الاعتماد الكلّي على «تغيرات صدفية محضة».

وأمّا هذه التغيرات ـ فقد حسبها الرياضي «باتو».

وانتهى إلى أنّ اكتمال «تغير جديد» في جنس ما قد يستغرق مليوناً من الأجيال، فلنفكر في أمر الكلب الذي تزعم الداروتيّة أنّه جد الحصان الأعلى، كم من المدّة ـ على قول الرياضي باتو ـ سوف يستغرقها حتّى يصبح حصاناً[2].

---

(١) Jwn sullivan Limitation of Science P 78.

(٢) الإسلام يتحدّى ص ١١٤.

الأدلّة والبراهين

الأدلّة والبراهين التي تذكرها الداروينيّة مستمدّة من الأمور التالية:

١ ـ علم الأجنّة.
٢ ـ علم الحفريات.
٣ ـ علم التشريح المقارن.
٤ ـ الردّة.
٥ ـ التشابه الخارجي.

١
علم الأجنّة

تقول النظرية الداروينيّة بالاستناد إلى علم الأجنّة: «إنّ جميع الحيوانات الفقارية تعيد سرد نشوئها وتطوّرها أثناء فترة الحياة الرحمية!

فأجنّة هذه الحيوانات تبدأ أول ما تبدأ بخلية واحدة اتفق على تسميتها بالزيجوت، فإذا ما حاولنا المقارنة بين جنين دجاجة أو سمكة أو إنسان في هذه المرحلة فلا امتياز لأيهما على الآخر شكلاً

وتشريحاً، بل إنّه ليصعب أيضاً التميز بينها وهي في المرحلة الثانية من مراحل النمو.

١ـ ففي المرحلة الأولى ليس الجنين سوى خلية واحدة في صورة بويضة صغيرة أخصبت بحيوان منوي. ولو حاولنا المقارنة بينه وبين أيّ حيوان أولي من ذوات الخلية الواحدة لما امتاز عنه في شيء. والأميبا هي أقرب الكائنات شبهاً بالجنين في هذه المرحلة، فكلاهما يتركّب من خلية واحدة.

٢ـ وفي المرحلة الثانية يلاحظ أنّ الخلية الواحدة السابقة توالي انقساماتها، حتّى يصبح الجنين مكوّناً من ثلاث طبقات خلوية، وبذلك يكون قد ارتقى عن مصاف الكائنات الدنيئة ذات الخلية الواحدة، وأصبح في عداد الحيوانات الجوف ـ معوية، فإذا قورن الجنين في هذه المرحلة مع «الهيدرا» ـ وهو حيوان مائي صغير ـ لما امتاز أيّهما عن الآخر، شكلاً وتشريحاً.

٣ـ أمّا في الطور الثالث، فإنّ الجنين لا يزيد عن دودة الأرض الحمراء التي يستعملها الأطفال طعماً لصيد الأسماك فإن لها ـ مثل الجنين ـ بعض الأجهزة البسيطة، فالجهاز الهضمي مثلاً يبدأ من الرأس ببلعوم صغير ضيّق، يليه تجويفان ثمّ ينتهي بالأمعاء، وليس للدودة هنا قلب أو رئة، فجهازها الدموي عبارة عن قناتين متصلتين على شكل دائري يجري خلالها تيار هادئ من الدم، أمّا الجهاز التنفسي فيتمثل في المسام التي توجد في الجلد وتوصل أحشاء الجسم بالهواء الخارجي.

تلك هي دودة الأرض الحمراء، وهكذا يكون الجنين في طوره الثالث.

٤- وفي الطور الرابع، أي بعد مضي ستّة أسابيع من عمر الجنين - يكون أقرب شبهاً بالسمك منه بالإنسان.

وقد يختلط علينا الأمر كثيراً إذا ما عقدنا مقارنة بين أجهزة الجنين في هذه المرحلة وبين السمك، فكلاهما يتنفس بواسطة الخياشيم، والقلب مكوّن لديهما من ثلاث غرف هي الجيب الوريدي والأذين، والبطين. ويلاحظ أنّ وظيفته هنا ليس أكثر من مركز لتجمّع الدم غير النقي حيث يدفعه إلى الخياشيم حتّى يتمّ تنقيته فيها ثمّ يتوزّع منها مباشرة إلى أجهزة الجسم المختلفة عن طريق شريان رئيسي.

أمّا بالنسبة للجهاز الهضمي والعصبي فهما على نمط واحد عند كليهما، وكلاهما عديم الطحال، وعيون السمك تقع على جانبي الرأس ذات قرنية منبسطة عديمة الجفون والأهداب ولا تدمع، وكذلك الحال عند الجنين في هذا الطور فالعينان تقعان على جانبي الرأس وليس في مقدمته، وهي في هذه الحالة عديمة الجفون والأهداب وليست لها غدد الدمع ... كذلك.

٥- وفي الطور الخامس يصبح الجنين كالضفدع تماماً، ولا نقصد هنا أنّ الجنين أصبح يشبه الضفدع بصفاته وملامحه، بل بأجهزته وأعضائه، فهو ضفدع بقلبه، وعينه ومخّه، وأذنه، وعظمه، وعضلاته.

٦- وفي الطور السادس يرتقي الجنين إلى طبقة الحيوانات اللبونة، ويندرج تحت أفراد العائلة: ثنائية الأيدي، إلاّ أنّه في الواقع يكون أقرب إلى العائلة رباعية الأيدي، كالقردة وأشباهها، وحتّى هذه اللحظة أيضاً يكون دماغه أقرب إلى دماغ القرد منه إلى دماغ الإنسان.

٧- ولا يبلغ جنين الإنسان غايته من التطوّر إلاّ في مرحلته

السابعة، ففي هذه المرحلة يتكوّن له الدماغ، وعلى الرغم من أنّ مخ القرد يكاد يشبه مخ الإنسان إلاّ أنّ الفارق الجوهري بينهما يكمن في ثقلهما، فبينما لا يتجاوز وزن مخ القرد عن ٣٥٠ جراماً فإنّ مخ الإنسان يزيد على ١٣٥٠ جراماً، أي أنّه أربعة أمثال مخ القرد».

وترى النظرية الداروينيّة: «أنّ تفوّق الإنسان وسيادته على المملكة الحيوانية، إنّما يُعزى إلى وزن مخّه، لا غير»[1].

إذن فالرحم قاعة صغيرة، يعاد فيها تمثيل تاريخ التطور كلّه، ابتداءً من الخلية الواحدة، وانتهاءً بالإنسان.

* * *

الملاحظات:

الملاحظات التي يمكننا إبداؤها في هذا المجال كثيرة نكتفي بما يلي:

١ ـ إنّ كلّ ما ذكر لا يثبت سوى أنّ هناك تشابهاً بين أنواع الحيوانات من جهة، وبين الإنسان من جهة أخرى في أطوار الجنين.

ولا شكّ أنّ التشابه ـ كما سنعرف ـ لا يمكن أن يعتبر دليلاً علمياً على أنّ أحد المتشابهين هو أصل الآخر إطلاقاً.

فإذا شاهدنا مصنعاً لإنتاج السيارات، يقوم **أولاً** بتصنيع العجلات، ثمّ جسم السيارة، ثم الأبواب، ثمّ بقية الأجزاء.. فهل يجوز لنا أن نعتقد أنّ السيارة إنّما تكوّنت من عجلات بسيطة ثمّ تطورت، وتطوّرت، حتّى وصلت إلى حالتها الراهنة، مستدلين على ذلك بالأطوار التي تمرّ بها السيارة قبل أن تصبح كاملة؟

---

(١) للمزيد من التفاصيل راجع: «تاريخ الحياة» تأليف: محمد كامل حسن.

إنّ التشابه في الكائنات هو دليل على وحدة الخالق، وليس دليلاً على وحدة الخلق.

٢ـ إنّ التشابه الذي ذكر في الأجنّة ليس إلاّ نتيجة بساطة التكوين، .. بدليل أنّ التباين يعظم على توالي اقترابهما من كمال التكوين. ولهذا فلا ينشأ من بويض الإنسان أو أجنّته سوى الإنسان، ولا ينشأ من بذرة اللّوز إلاّ اللّوز، ولا من جنين الحصان إلاّ الحصان.

٣ـ إذا كانت أطوار الجنين تلخّص لنا ـ كما تقول الدارونيّة ـ قصة التطور من ألفها إلى يائها، فلا بدّ من الاعتقاد بأنّ التطوّر إنّما حدث نتيجة تراكم العوامل الخارجية، وليس نتيجة الطفرات الداخلية، لأنّ الجنين لا يتطوّر عن طريق القفز، وإنّما عن طريق «طي المراحل» بصورة بطيئة وطبيعية. أي إنّ أطوار الجنين إنّما تكون برهاناً على النظرية حسب ما عرضها دارون، أي التطوّر العضوي، لا كما جاء في الدارونيّة الحديثة أي الطفرات النوعية. وقد ذكرنا سابقاً أنّ الذين يؤمنون بالدرونيّة هم أنفسهم يرفضون النظرية القديمة علميّاً وتجريبيّاً.

٢

علم الحفريات: «الباليونتولوجيا»

تقول النظرية الدارونيّة: «إنّ الإنسان إذا استقرأ طبقات الأرض يجد فيها متحجرات النباتات، والحيوان، والإنسان ومتحجرات كلّ طبقة تختلف غالباً عن متحجرات سائر الطبقات، وكلّما كان المتحجّر أقرب إلى قشرة الأرض كان أقرب إلى الكمال، وكلّما كان

المتحجّر أبعد عن قشرة الأرض كان أبعد عن الكمال.

وتعتقد أيضاً أنّ متحفاً يزخر بأروع النماذج لأحياء العصور الجيولوجية المنقضية يوجد بين طيات الصخور الرسوبية، ذلك أنّ طبقات هذه الصخور قد احتوت على آثار معظم الأحياء التي عمرت الأرض في تلك الأزمنة السحيقة والتي عاصرت تكوّن هذه الصخور، ولقد عملت هذه الصخور على حفظ أثر الأحياء، التي دفنت في طياتها، من عوامل الفناء».

ويرى المؤمنون بالداروتيّة أنّ أعمال التنقيب التي قام بها الجيولوجيون في مختلف طبقات الأرض قدّمت أسطع برهان على حدوث التطوّر بالأحياء. فقد قدّمت لنا نماذج كاملة للأحياء التي عمرت الأرض على مختلف العصور، وبذلك أصبح لدينا الدليل المادي على حدوث التطوّر.

إذ بمقارنة الحفريات بالصخور التي تحتويها وجد أنّه كلّما تعمقنا في التنقيب كانت الحفائر التي نحصل عليها أبسط تركيباً وأبعد شبهاً بالكائنات في العصر الذي نعيش فيه، على أنّ الكائنات الأكثر رقيّاً والأقرب شبهاً من الكائنات الحالية لا توجد إلاّ في الطبقات الأقرب إلى السطح. فالمعروف أنّ الصخور الرسوبية قد أرسبت طبقة تلو أخرى على طول التاريخ الجيولوجي، ومن البديهي أن تكون الطبقات الدنيا قد ترسبت قبل الطبقات العليا، أي أنّ الطبقات الحديثة ترسبت فوق الأقدم منها، ولما كان من السهل تقدير عمر هذه الطبقات بالنسبة لبعضها فقد صار من الميسور تقدير عمر هذه الحفائر فكلاهما يحتويها تاريخ واحد.

ويقول هؤلاء: «إذا نحن تتبعنا هذه الطبقات، من الطبقة السفلى أي أقدمها إلى الطبقة العليا التي نعيش نحن عليها، واستقرأنا

الأحياء التي تحجرت فيها وجدناها تتفق ونظرية التطور، فالأحياء الأولى بسيطة ثمّ تتدرّج في الرقي حتّى تصل إلى الأحياء الراهنة في الطبقة العليا. وهذه الطبقات تبلغ ١٣ طبقة تكوّنت في خمسة دهور:

١ ـ **الدهر القديم**. وفيه ظهرت الحياة الأولى المؤلّفة من خلية واحدة، مثل الألجة وهي طحلب بحريّ لا ورق ولا جذع ولا جذر له، لا يزال موجوداً: منه ما هو ذو خلية واحدة، ومنه ما هو ذو عدّة خلايا، وعمق طبقات هذا «الدهر القديم» يبلغ ٧٠,٠٠٠ قدم. ولسنا نجد أثر الحياة فيه وإنّما نحن نفترضها. وسبب ذلك أنّ الأحياء التي ظهرت فيه كانت هلامية صغيرة جدّاً فلم تترك أثراً. ثمّ إنّ قرب طبقات هذا الدهر للصخور البركانية أحالها هي نفسها إلى صخور متبلورة بفعل الحرارة فضاعت منها معالم الحياة.

٢ ـ **الدهر الأوّل**. وله ٣ طبقات سمك كلها ٤٢٠٠٠ قدم. وهي أعمق الطبقات المشتملة على متحجرات، وفيها نرى عدّة متحجرات من المحار والإسفنج والمرجان والقشريات والسمك، ونجد من النبات «الألجة» النبات البحري الذي ذكرناه في الدهر القديم.

٣ ـ **الدهر الثانوي** وله خمس طبقات، سمكها ١٥,٠٠٠ قدم وفيه نجد الصنوبر، والنخل، والزواحف، والطيور، والأسماك، والحيوانات الكيسية.

٤ ـ **الدهر الثالث** وفيه ثلاث طبقات سمكها ٣٠٠٠ قدم وفيها متحجرات الثعابين، والقياطس، والقردة، والأشجار الموجودة الآن.

٥ ـ **الدهر الرابع** وفيه الطبقة الأخيرة وسمكها ٦٠٠ قدم وفيه

متحجرات الماموث (أي الفيل الأشعر المنقرض) وذوات الأربع الصوفية، والإنسان وجميع الأشجار الحاضرة».[1]

وتضيف الدارونيّة: «ومن دراسة هذه النتائج نتأكّد من أنّ الكائنات الحيّة قد نهجت سبيل التطوّر في ظهورها، فلقد عمر الأرض في بادئ الأمر كائنات بسيطة التركيب، ثمّ تدرجت في الرقي، وتنوّعت في الأشكال حتّى صارت إلى الصور التي نراها عليها اليوم.

ومن الحفائر التي عثر عليها العلماء أثر كائن أطلق عليها اسم «أركيوبتركس» وقد تميّز بوجود أسنان في منقاره وفقرات عظمية في ذيله، ومخالب بارزة في نهاية جناحيه، أي أنّه كان من الزواحف ـ الطائرة.

كما عثر العلماء في عام ١٨٩٢ في جزيرة جافا على جمجمة يتوسّط شكلها بين جماجم البشر والقرود، ممّا يدلّ على أنّه كائن يشبه في شكله وتركيبه البشر والقرود معاً!

ولقد تكرّر العثور على مثل هذه الجماجم في مدينة «هيدلبرج» عام ١٩٠٧. وكذلك عثر عليها بالقرب من مدينة «بيت داون» عام ١٩١٢، ولقد أطلق على هذا الكائن الوسط اسم «البيث كانثروب» أو: الإنسان القردي.

ولقد تكرّر العثور على العديد من الحفائر لنباتات وحيوانات تعذّر وصفها تحت أيّ قسم من أقسام النباتات، أو الحيوانات بترتيبها العلمي المعروف. ولقد عبّر بعض العلماء عن هذه الظواهر بأنّها: حوادث انقلابية بين عوالم متدرّجة في التطوّر فحيوان

(١) راجع نظرية التطور وأصل الإنسان ص ٥٧ـ٥٩.

«الأركيوبتركس» مثلاً أحد الحدود الانقلابية بين عالمي الزواحف والطيور».

* * *

الملاحظات:

١ ـ إنّ الحفريات التي تمّت حتّى الآن لا تكفي لاستنتاج تعميم كلّي، لأنّها ناقصة، إذ لم يجرِ مسح كلّي وشامل لكلّ مناطق الأرض، فلعلّ الإنسان الأول، والأقدم على كافّة الكائنات كان يعيش في مصر، وليس في المناطق التي تمّ الحفر فيها. وكما يقول المثل: «عدم الوجدان، لا يدلّ على عدم الوجود».

والطريف أنّ رأي أصحاب النظريّة الداروني‌ّة يتغيّر كلّ يوم في تحديد عمر الإنسان، بسبب إجراء مزيد من الحفريات في بعض المناطق، مثلاً كان هؤلاء يعتقدون سابقاً أنّ عمر الإنسان لا يصل إلى أكثر من ٦٠٠ ألف سنة، ولكنّهم أعلنوا بعد ذلك عن أنّ الإنسان له عمر أطول بكثير ممّا كانوا يظنون، بعد أن وجدوا آثاره في طبقات أكثر عمقاً، ممّا أعلنوا سابقاً.

جاء في مجلة العلوم اللبنانية أنّه «وجد الدكتور «أولدافي جورج» جمجمة متحجّرة في تنجانيكا فحملها معه إلى معهد الدراسات في جامعة كاليفورنيا، وهناك تمّ إجراء الفحوص اللازمة على الصخرة التي وجدت تلك الجمجمة عليها فكان عمرها يرقى إلى مليون وثلاثة أرباع مليون عام. ولما كانت أحدث المعلومات المتعلّقة بهذا الشأن تقول بأنّ عمر الإنسان الأول لا يتجاوز أكثر من ستمائة ألف سنة فقد جاء في متحجرة الدكتور المذكور تناقض لهذا القول. ليس هذا فحسب، بل إنّ نظرية التطور والنشوء نفسها ستتحوّر. لقد كان العلماء يقدرون أنّ الإنسان ابتدأ بصنع أدواته من

الكوارتز والصوان حيث استطاع أن يسير منتصباً أي منذ نصف مليون سنة، ولكن الحكم الأخير يرفع ذلك إلى مليون ونصف مليون سنة على الأقل»[1].

هذا في عام ١٩٦٠. أمّا بعد ذلك فقد اكتشفوا جماجم أكثر قدماً من ذلك، حتّى أنّه يوجد في المتحف الطبيعي في واشنطن جمجمة تعود إلى رجل عاش قبل أكثر من مليوني عام.

وإذا كان عمر الإنسان قد تدرّج ـ حسب الاكتشافات المتتالية من ٦٠٠ ألف سنة إلى ١,٥٠٠,٠٠٠ سنة إلى أكثر من ٢,٠٠٠,٠٠٠ سنة فإنّ هذا يعني أنّه لا يجوز إطلاق حكم كيفي بمجرّد اكتشاف بعض المتحجرات.

٢ـ إنّ قصارى ما تدلّ عليه الحفريات هو: وجود الإنسان في فترة متأخّرة عن وجود الحيوانات والنباتات، وهذا لا يتنافى إطلاقاً مع القول بالخلق الدفعي، بل إنّ تقدّم النباتات وحتّى بعض الحيوانات في الخلق أمر تتطلبه حياة الإنسان ذاتها.

ثمّ «هل إنّ وجود سيارة صغيرة في الطابق الأول من عمارة، وسيارة أكبر في طابق ثان، وسيارة أكبر في طابق ثالث، وهكذا مع اختلاف الهيئات، تدلّ على تطوّر السيارة بنفسها من دون أن تكون كلّ سيارة صنعت مستقلة»[2]؟.

٣ـ هناك إحصاء لبعض علماء الحفريات يقف في الجانب المعاكس لإحصاءات أصحاب الدارونيّة إذ يقول هذا الإحصاء: «إنّ ثمانية وعشرين في المائة من المتحجرات أنواع لم تتغير، وسبعة في

---

(١) مجلة العلوم: العدد ـ ٢ السنة ـ ٧ شباط ١٩٦٢ ص ٧٣.

(٢) بين الإسلام ودارون ص ١٣.

المائة أنواع مهاجرة، وخمسة وستين في المائة لا سلف لها، وأمّا الأنواع التي نشأت بالتغيّر أو الأنواع الجديدة فلا وجود لها في شيء من بقايا الحفريات»[1].

٤ـ إنّ العثور على «متحجرة كائن يتمتّع بأسنان في منقاره وفقرات عظمية في ذيله، ومخالب بارزة في نهاية جناحيه» ليس دليلاً على أنّه حلقة وصل بين الزواحف والطيور إذ:

أولاً ـ يمكن أن يكون هذا الكائن نوعاً معيناً قد انقرض، ولم يعد له وجود الآن.

وثانياً ـ يمكن أن يكون كائناً شاذّاً بين الحيوانات، ولا يجوز اعتبار الشاذ دليلاً، إذ هل يجوز لنا ـمثلاًـ أنّ نعتقد أنّ الإنسان كان في فترة من تاريخه يتمتع بقلبين بدل القلب الواحد بمجرّد أنّ نجد إنساناً يحمل قلبين في صدره؟

٥ـ «إذا كان أصحاب الداروتيّة يستدلون على صحّة مبدأ التطوّر والارتقاء بعظام الجماجم وما شابهها من الهياكل العظمية التي قالوا إنّها تدلّ على عدم اكتمال أصحابها في التركيب الجسمي والتكوين العقلي، فإنّا نستدلّ على بطلان هذه النظرية، بأنّ الحفريات أيضاً دلّت على أنّ هناك من طوائف الأحياء أنواعاً كانت في الماضي السحيق أكمل في التكوين وأقوى في التركيب مما جاء بعدها من أنواعها.

ولن نذهب بعيداً فالإجماع قائم على أنّ الإنسان الذي عاش قبل مئات السنين، كان أقوى من حيث جسمه وأكمل في التركيب من إنسان اليوم.

---

(١) «مناهج الحكماء في نفي النشوء والارتقاء» تأليف الدكتور إبراهيم حوراني.

«وقد وجد الباحثون أثناء الحفر في طبقات الأرض، جماجم وهياكل عظمية لأنواع مختلفة من الكائنات الحية تدلّ على أنّها أكمل وأرقى مما أتى بعدها من الأنواع، حيث وجدوا لنفس هذه الأنواع في الطبقات العليا من الأرض جماجم وهياكل، دلّت على أنّ هذه الأنواع أدنى من التي وجدوها في الطبقات السفلى.

«مع العلم أنّه لو كان ما زعمه هؤلاء صحيحاً، لوجب أن يكون الأدنى من آثار هذه الأحياء المختلفة في طبقات الأرض فوق الأعلى منها دائماً. وهذا ما أثبتت الحفريات خلافه»[1].

٣

علم التشريح المقارن

على الرغم من أنّ أطراف الحصان، لا تشبه أطراف الضفدع التي تختلف، بدورها، عن أطراف السمك، وعلى الرغم من أنّ أطراف البشر تختلف عن أطراف الطير، فإنّ علماء التشريح المقارن يؤكدون أنّها قد بنيت على أساس واحد، ووفق نظام معين هو نظام تخميس الأصابع، صحيح أنّها اختلفت في شكلها العام ولكن ذلك من أجل ضرورات اقتضتها ظروف البيئة المحيطة التي لا مفر منها.

وبالنظر لأنّ النظام الذي شيّدت عليه هذه الأطراف نظام واحد، فليس هناك - في رأي هؤلاء - سوى تعليل واحد لذلك هو: أنّها قد نشأت جميعها من أصل واحد مشترك، ثمّ اقتضت الحاجة لأن يختلف هذا العضو عن ذاك، وفقاً لما تطلبته الطبيعة من احتياجات، فالأطراف في السمك مخصّصة للعوم، بينما هي في الطير مخصّصة

---

(١) الإسلام ونظرية دارون ص ٨٧.

للطيران، وهي في الخيل مخصّصة للجري.. وهكذا فهي مظاهر متعدّدة لأصل واحد.

وهناك ظواهر تشريحية عديدة في بنية الحيوانات تذكرها الداروينيّة كدليل على ذلك:

أ ـ ففي الثعبان الذي ليس له أرجل يكشف التشريح عن أرجل ضامرة مختفية في هيكله العظمي.

والطيور التي تبدو وكأنّ لها زوجاً واحداً من الأطراف يكشف التشريح أنّ أجنحتها هي الزوج الثاني من الأطراف، وقد تحوّر ليلائم وظيفته الجديدة.

وزعانف السمك الأربع هي نفس الأطراف الأربعة متحورة إلى ما يشبه المجاديف.

ب ـ الحيوانات التي تدبّ على الأرض وتتنفس برئات يكشف التشريح عن أنّ رئاتها هي نفس كيس العوم، تحور ليلائم وظيفة التنفس الجديدة.

ج ـ عدد أصابع اليد والقدم فينا خمس، وفي القرود خمس، وفي الفيران خمس، وفي السحالي خمس، حتّى الوطاويط لها سبع أصابع ضامرة.

د ـ القلب والدوْرة الدموية تسير على خطّة واحدة في الحوت كما في الفأر، كما في القرد، كما في الإنسان، كما في الوطواط، نفس الشرايين لها نظائرها في كلّ نوع، والقلب هو دائماً نفس القلب بغرفه الأربع.

هـ ـ والجهاز العصبي الذي يتألف من المخ والحبل الشوكي

وأعصاب الحس، وأعصاب الحركة، هو نفس الجهاز العصبي في الكل.

و - والجهاز العضلي بعضلاته، والهيكل العظمي بعظامه، عظمة عظمة، كلّ عظمة لها نظيرها مع اختلافات طفيفة في الشكل جاءت لتلائم الوظيفة في كلّ حيوان.

ز - والجهاز التناسلي نفس الخصية والمبيض، وقنوات الخصية، والمبيض، والرحم في كلّ حيوان.

ح - وفترة الحمل عندنا تسعة أشهر، وفي القرود العليا تسعة أشهر، وفي الحيتان تسعة أشهر، حتّى فترة الرضاعة عندها سنتان.

ط- وفقرات الرقبة في الإنسان عددها سبع، وفي الزرافة، برغم طول رقبتها، أيضاً سبع، وفي القنفذ سبع.

ي - وهضم الطعام عندنا يتمّ بنفس الطريقة التي يتمّ بها هضم الطعام عند الحيوانات.

ك - ومادة أعصابنا هي نفس مادة أعصاب الحيوان.

ل - وهناك أيضاً التشابه الكبير في الأمور التالية:

١ - طريقة اختزان الماء في الجسم.

٢ - تكوين وتركيب الغشاء الخلوي.

٣ - نوعية البسط والانقباض في العضلات.

٤ - تركيب وعمل الهرمونات.

م - والحمضيات الموجودة في جسم كافة الأحياء هي من نوع واحد يطلق عليه اسم (D-Glucose) كما أنّ السكر الموجود أيضاً من نوع واحد يطلق عليه اسم: (L-Aminoacid)، وأيضاً

فإنّ العوامل الوراثية تعيش في "D.N.A"، بنفس التراكيب الحيوانية وعلى نمط واحد في كلّ الأحياء.

ثمّ...

إنّ هناك ظاهرة الأعضاء الأثرية في الإنسان، وهي في نظر الدارونيّة، من البراهين التي يمكن أن يمدّنا بها علم التشريح المقارن فالزائدة الدودية وعضلات الأذن، والغشاء الرامش بالعين، والفقرات العصعصيّة، كلّ هذه أعضاء أثرية لا لزوم لها ولا فائدة منها، فالزائدة الدودية مثلاً لا فائدة منها مطلقاً للإنسان، بل ربما كانت السبب في هلاكه في الأيام الغابرة، إلاّ أنّها ذات فائدة كبرى بالنسبة للحيوانات آكلة العشب، ففيها يتمّ هضم الأجزاء الحرشة من النباتات، ومعنى ذلك أنّ الإنسان قد قضى ردحاً طويلاً من الزمان يتغذّى بالنباتات، ثمّ تحوّل بالتدريج إلى آكل اللحوم ومن ثمّ لم يعد لهذا العضو فائدة، فأخذ يضمر ويذوي إلى أن أصبح مجرّد أثر، وفقراتها تدامجت والتحمت لانعدام وظائفها، وأيضاً فإنّ عضلات أذن الإنسان، ما فائدتها؟

تقول: الدارونيّة لا شيء.

أكان الإنسان قديماً يحتاج إلى تحريك أذنه؟ ... يحتمل، إلاّ أنّ المؤكّد أنّ التعاريج الكثيرة الموجودة على صيوانها خير بديل عن تلك العضلات. فهذه التعاريج والبروزات تعمل على عكس الصوت القادم من أيّ اتجاه إلى داخل القناة السمعيّة دون ما حاجة إلى تحريك الأذن ذاتها نحو مصدر الصوت.

إلاّ أنّ هذه العضلات ذات فائدة كبرى بالنسبة للكثير من الحيوانات، فأذن الحمار مثلاً عبارة عن أسطوانة جوفاء ملساء لا

تعاريج بداخلها أو نتوءات، ولذا فعندما يصدر صوت من مكان معين فلا بدّ للحمار أن يحرّك أذنه تجاهه حتّى يمكنه التقاطه والاستماع إليه بوضوح[1].

ويوجد في نهاية العمود الفقري ثلاث أو أربع فقرات تسمّى بالفقرات العصعصية، ولقد أثبتت الأيام أنّ هذه الفقرات لا تؤدّي أيّة فوائد للإنسان إلاّ أنّها تدل على أنّه في الأزمان الغابرة كان للإنسان ذيل قصير ثمّ انقرض على مرّ الأيام إلى أن صار مجرّد أثر مختبئ داخل جسمه، على أنّه من حين لآخر يعتري هذا الأثر نوبات تمرد فيظهر لدى بعض الأطفال حديثي الولادة على شكل ذيل قصير يمكن استئصاله بالجراحة.

والنتيجة التي تستخلصها الداروينيّة من ذلك هي «أنّ الإنسان وسائر الحيوانات الفقارية، التي تشترك معه في وجود هذه الأعضاء، قد انحدرت كلّها من أصل واحد، وأنّ وجود هذه الأعضاء مندثرة أو في سبيلها للاندثار إنّما يدلّ على حدوث التطوّر بين الأحياء»[2].

الملاحظات:

١ - إنّ علم التشريح المقارن، مثل علم الأجنّة، لم يكتشف إلاّ وجود بعض الشبه بين الإنسان وبعض الحيوانات والتشابه ليس دليلاً علميّاً على أنّ أحدهما أصل الآخر.

فكلّ جنسين ماديين، لا بدّ أن يكون بينهما نوع من التشابه، فهل يعني ذلك أنّ أحدهما أصل للآخر؟.. خذوا الطائرة وأبسط حجر

(١) جاء في كتاب: "القرآن محاولة لفهم عصري": إنّ المشرط وهو يعبث خلف الأذن البشرية اكتشف شيئاً آخر فها هي ذي نفس عضلات الأذن التي كانت تحرك آذان أجدادنا الحمير (...)، وقد تلفت وضمرت حينما لم تعد لها وظيفة.. ص ٤٤.

(٢) انظر تاريخ الحياة ص ١٤٣-١٤٤.

من الأحجار، ثم قارنوا بينهما، فسرعان ما تكتشفون أنواعاً من التشابه. فكلاهما ـ مثلاً ـ له «حجم» وثقل. وكلاهما يتركّب من مواد أخذت من الأرض وكلاهما لا يمكن أن يؤكل. وكلاهما يمكن أن يحرّكه الإنسان...

والإنسان بحكم كونه «كائناً مادياً» إلى جانب كونه «كائناً روحياً» لا بدّ وأن يكون بينه وبين الحيوانات الأخرى ـ وحتّى الجمادات ـ أنواع من المشابهة، وهذا لا يعني أنّ الحيوان هو أصل الإنسان. كما أنّ مشابهة الطائرة للحجر لا يعني أنّ هذا الأخير أصل الطائرة.

٢ ـ إذا كانت هناك أوجه للشبه بين جسم الإنسان وجسم الحيوان، فلا شكّ أيضاً أنّ هناك الكثير من المفارقات وهي مفارقات أساسية، فكيف يجوز الاستناد إلى «أوجه الشبه» بينما يتغافل عن «المفارقات». إنّه استدلال غير علمي، لأنّه استدلال ناقص يتجاهل وجود الأدلّة المعاكسة.

٣ ـ إذا كان الشبه بين الشيئين دليلاً على أنّ أحدهما أصل للآخر، فلا بدّ أن يعتبر أقرب الحيوانات إلى الإنسان أصلاً له. ولا بدّ أن يكون هؤلاء قد اكتشفوا هذا الحيوان.. فما هو..؟

والجواب: ـ ليس هناك اتفاق على هذا الحيوان!

وسنعرف ذلك بالتفصيل في فصل قادم.

٤ ـ إنّ قضية الزوائد الأثريّة لا تشكّل دليلاً، إنّما هي ادعاء محض.

فأولاً - إنّ ادعاء أنّ مثل الزائدة الدودية، وعضلات الأذن، وفقرات العصعص أشياء زائدة لا حاجة إليها ليس إلاّ وليد الجهل التام بعلم التشريح الحديث. فلقد اكتشف العلم، بما لا يدع مجالاً

للشك فوائد كبيرة لكلّ واحدٍ منها.

وثانياً - إذا كانت «الزائدة الدودية» وما شابه ذلك من مخلفات أجدادنا السابقين، فلماذا لم تسقط حتّى الآن؟

هل إنّ مليوني سنة ما كانت تكفي لذلك، في الوقت الذي تعتقد الداروينيّة، أنّ أقلّ من هذه المدّة، قضت على الأجنحة، والزعانف، وغيّرت، وبدّلت، وخلقت؟.

٥ - لو فرض أنّ العلم لم يصل بعد إلى اكتشاف فوائد لبعض الأعضاء البشرية، فلا يعني ذلك أنّه يجب علينا أن نعتبرها زوائد أثرية، لأنّ العلم لم يصل إلى معرفة جميع الأشياء حتّى الآن، ولا يزال يبحث وينقّب فلعلّه يكتشف في يوم من الأيام أنّ كل واحد مما اعتبرته الداروينيّة زوائد يجب استئصالها، له تأثير مباشر على كيان الإنسان ككائن حيّ.

٦ - إنّ وجود أعضاء كالزائدة الدودية ليس دليلاً على أنّ الحيوان أصل للإنسان، إذ لعلّ العكس هو الصحيح أي إنّ أصل الحيوان كان هو الإنسان، ولمّا انقلب حيواناً طالت زائدته، وطلع له الذيل... إلخ.

٧ - الغريب، أنّ أحد فلاسفة الداروينيّة يستدل على «زائدية» المعى الأعور بأنّها كثيراً ما تكون سبباً لالتهابات مؤذية نحتاج إلى استئصالها، ويقول: «ولو كانت مفيدة لنا لكان استئصالها مضرّاً»[1].. كأنّ مقياس الأصالة في العضو هو عدم إصابته بالالتهابات المؤذية، مع العلم أنّنا كثيراً ما نضطر إلى قطع واستئصال اللوزتين أو الكلية، أو المثانة أو ما شابه ذلك، بل قد نضطر إلى استئصال القلب، وزرع

---

(١) نظرية التطور وأصل الإنسان.

قلب جديد مكانه، فهل يعني ذلك أنّ كلّ هذه الأعضاء زوائد لا فائدة منها؟!

ومرّة أخرى نودّ أن نذكّر بأنّ الشبه الوشيجي بين الكائنات هو دليل على وحدة الخالق، ولكنّه لا يمكن أن يكون دليلاً على وحدة الخلق.

وكما أنّ الإنسان يصنع المصنوعات المتشابهة، فيدلّ التشابه على وحدة الجنس «الصانع» ولا يدلّ على وحدة المصنوع، كذلك فإنّ التشابه بين المخلوقات الحيّة، يدلّ على وحدة الصانع، وليس على وحدة المصنوع.

الردَّة

تقول النظرية الداروينيّة: «إنّ هناك حالات شاذّة يرتدّ فيها الكائن إلى أصله السابق، فربما يولد طفل له ذيل قصير، يتمّ قطعه بالجراحة. وقد يولد وهو مكسوّ بالشعر كالحيوان. وتسمي الداروينيّة ذلك بـ«نوبات تمرّد» أو «فلتات الطبيعة» أو «الردّة». وتعتقد أنّ ذلك دليل على أنّ أصل الإنسان كان حيواناً، إذ لو لم يكن الأصل كذلك لم يرجع الفرع - في بعض الأحيان - إلى الأصل».

* * *

الملاحظات:

١ - لا معنى للردّة إطلاقاً وزيادة عضو، كنقص العضو، إنّما هي نتيجة عاهة أو مرض، وقد اكتشف العلم الحديث الأسباب التي تؤدي إلى ذلك.

٢ - يولد وبكثرة تقريباً، رجل وله أعضاء تناسلية للرجل والمرأة

معاً، مشتركة فهل يعني ذلك نوعاً من الردّة وأن الإنسان كان في الأصل يتمتع بأعضاء تناسلية مشتركة، «إذ لو لم يكن الأصل كذلك لم يرجع الفرع في بعض الأحيان إلى الأصل»؟!

٣ ـ إذا كانت الردّة دليلاً على التطوّر، فهل تكون «اللاردّة» دليلاً على العكس؟

إذا كان الجواب سلبيّاً، فإنّه يعني أنّ الردّة ليست هي الأخرى دليلاً على شيء، وإذا كان إيجابيّاً فما بال ملايين الملايين من البشر الذين يولدون وينمون من دون أن يرتدّ أحدهم قرداً، أو حصاناً أو حماراً؟ لماذا لم نسمع مثلاً أن يولد من المرأة جرو كلب؟ بدل طفل إنسان؟

٤ ـ إنّ الداروينيّة نظرية شاملة، فهي تعتقد بتطوّر النبات، كما تعتقد بتطوّر الإنسان، فلماذا لا نجد أيّ أثر للردّة في النباتات؟

٥

التشابه الخارجي

بسبب التشابه القائم بين الإنسان والقرد فإنّ النظرية الداروينيّة تقول بأنّ الإنسان إنّما تطوّر عن القرد مباشرة، وأنّ كلاًّ من الحالة القردية والإنسانية تنازعت طويلاً في الإنسان فكانت القردية تريد المحافظة على نفسها، لكن البيئة كانت تريد إيجاد الإنسان، وحيث إن الإنسان كان من صف أعلى فقد تغلب على القرد، وتطوّر منه. أمّا التغييرات التي حدثت فيها فإنما هي نتيجة للبيئة التي عاش فيها فمثلاً: تدوَّر وجهه بسبب أنّه كثيراً ما كان يعيش على الأشجار ويحملق في الأرض فوقع الضغط على وجهه، وأحدث فيه تدويراً.

وأما ذيله، فقد زال بسبب سحل نفسه على الأرض، ممّا سبّب احتكاك مؤخرته بها ومن ثمّ أزيل عنه.

الملاحظات:

١ ـ في قضية من هو جد الإنسان الحالي ليست للنظرية الداروني‍ّة كلام موحد، فتارة تقول إنّه القرد، كما يدلّ على ذلك إعلانهم بين فترة وأخرى أنّهم اكتشفوا الحلقة المفقودة بين الإنسان والقرد، أي: القرد ـ الآدمي، وكما يدل على ذلك أيضاً أنّهم يقولون إنّ الزائدة الدودية هي نفسها التي في القرد، وأنّ الشبه بين الإنسان والحيوان يبلغ ذروته في القرد ـ والإنسان .. ويرسمون صور الهيكل العظمي للإنسان، والقرد للتدليل على الشبه الكامل، ويستدلون أيضاً بطبيعة الإنسان وطبيعة القرد، ووجود الحيض فيهما[١].

وتارةً تقول: «إنّ الإنسان والقرد نشآ من أصل مشترك ولظروف خاصّة ـ ما زالت مجهولة! ـ كانت سرعة تطور الأول أكثر وأشدّ تنوعاً واختلافاً من الثاني بالدرجة التي جعلت الإنسان الآن أشدّ اختلافاً عن أصله، من القرد»[٢].

وعلى كلا القولين فإنّ الاستدلال مردود على الداروني‍ّة.

أ ـ إذ لو كان أصل الإنسان شيئاً آخر غير القرد، فنحن نتساءل عن ذلك «الأصل» ما هو؟ وكيف كان؟.

إنّ الاعتذار عن معرفة ذلك بأنّه «انقرض من آماد ما قبل التاريخ» - كما يقول دارون - ليس إلاّ مثل أن يدعي إنسان ما بأنّ أصل

---

(١) نظرية التطور وأصل الإنسان.

(٢) تاريخ الحياة ص ١٤٤.

الحجر، ليس حجراً وإنّما هو شيء آخر ولكنّه منقرض منذ آماد التاريخ، فهل يكون ذلك إلاّ ادعاءً غير مبرهن؟

ب - ولو كان أصل الإنسان قرداً فأولاً ما هو الدليل على ذلك؟

تقول النظرية الدارونيّة التشابه.

ونقول:

أولاً - إنّ التشابه لا يستلزم أن يكون أحد المتشابهين أصلاً للآخر. إنّ هناك الكثير من نجوم السينما الذين يشبهون كبار عظماء التاريخ، فهل يعني ذلك أنّ هؤلاء أصل لأولئك؟ أو العكس؟.

ثم من يقول إنّ أصل الإنسان هو القرد، ولم لا يكون العكس، بأن يكون أصل القرد إنساناً، ولكنّه انقلب قرداً بفعل عوامل البيئة؟

وثانياً - إنّ أقدم الحفريات التي درسها العلماء أمثال «هكسلي» و «جون لبوك» و «فوجت» و «شافوزن» وجميع الطبيعيين، تدلّ على أنّ الإنسان القديم وإن كان أقبح صورة من الإنسان الحالي، إلاّ أنّه لا نسبة بينه وبين القردة في شيء، كما اعترف بذلك الاختصاصي بدراسة الجماجم البشرية العلامة «لاريت» [1].

وثالثاً - يفيد اكتشاف بقايا إنسانية وجدت في مغارات «أنجيس» و «تندرتال» بأوروبا وهي من أقدم البقايا البشرية وهي تكشف عن عدم وجود فرق إطلاقاً بين الإنسان القديم وبين الإنسان الحالي.

يقول الدكتور «دوكاترو رواز» - أحد مشاهير علماء الطبيعة في فرنسا -:

♦ «إنّنا لا نشاهد في عالم الطبيعة أية قرابة بين الإنسان

---

(١) دائرة المعارف: فريد وجدي

والقرد، فنحن نرى في اكتشافات الدورة الرابعة للأرض: أنّ إنسان ذلك اليوم يشبه تماماً إنسان هذا اليوم، في حين أنّ نظرية دارون تقضي بلزوم وجود تشابه أكثر بين القرد والإنسان في ذلك اليوم، منه، في هذا اليوم».

ويضيف:

- «ليس وجود الشبه الكامل فقط بين إنسان ذلك اليوم، وإنسان اليوم، بل تدلّ الحفريات التي أجراها العلماء أنّ إنسان اليوم أكثر نقصاً، وأقلّ كفاءة ـ من الناحية البيولوجية ـ، من الإنسان في ذلك الحين».

ورابعاً ـ إنّه وإن كان في بعض طوائف الناس صفات يشاركهم القرد فيها، كبروز الفك، وفطس الأنف مثلاً، ولكن الصفات المشار إليها ليست هي التي تقوّم الجنس القردي حتّى يكون التشابه فيها دليلاً على أصالة القرد للإنسان، بل المقوم صفات أخرى هي أبعد ما تكون عن الإنسان. حتّى أنّ كلّ قطعة من جلد القرد كافية لتمييز نوعه عن غيره من الأنواع.

فالتشابه السطحي لا يمكن أن يشكل دليلاً على أصالة القرد، بالإضافة إلى المفارقات الأساسية التي تجعل الهوّة بينه وبين الإنسان سحيقة جدّاً. ممّا يستحيل معها حتّى «الطفرة» المزعومة.

وخامساً ـ إذا كان الشبه وحده يكفي للبرهنة على أنّ أصل الإنسان هو القرد، فإنّ الإنسان أقرب إلى «الليمور»، في أعضاء كثيرة من جسمه، منه إلى القرد، فهو من ناحية يديه ورجليه يشبه الليمور تماماً، بينما هو من ناحية ذكائه أقرب إلى الدلفين، بينما الكلب قريب من القرد في الذكاء، أي: إنّ القرد والكلب يقفان في

مرتبة واحدة من الذكاء، فهل يجب ـ إذن ـ أن نقترح أن يكون الجدّ الأعلى للإنسان الدلفين أم الليمور، أم ماذا؟.

إذا كان القرد، أو أيّ كائنٍ آخر هو أصل الإنسان فما بال عشرات الآلاف من القرود تعيش فيٍ أخسأ الأوضاع ولا تتطوّر، أليست كلّ العوامل متوافرة لها. كما هي متوافرة للإنسان؟

يقول العالم الألماني الشهير في الطبيعيات: «ويركو»:

- «يجب عليّ أن أُعلن أنّ كلّ تقدّم نحقّقه في عالم الأنتروبيولوجيا، يكذب القرابة الخيالية بين الإنسان والقرد، بل يخرجها ـ شيئاً فشيئاً ـ عن درجة الاحتمال، أو على الأقل أن لا نعتبرها من المسائل العلمية[1]»

ويقول «فون باير»:

- «إنّ عقيدة الذي يعتبر الإنسان ناشئاً من القرد، أكثر عقائد البشرية جنوناً على طول التاريخ[2]».

---

(١) راجع «نوع الإنسان» لويركو.
(٢) راجع حوار في الفكر الماركسي ص ٣٤.

مناقشات جانبيّة

تهافت النظريات المادية

ما هي مادة الحياة الأولى؟ وكيف تطورت؟

تجيب المادية ـ الدارونيّة على ذلك بأنّ مادة الحياة الأولى هي «ذرة بروتينية» بسيطة .. لا تختلف عن أيّة ذرة بروتينية أخرى، تطوّرت، وتطوّرت، حتّى خلقت الإنسان.

أمّا تطورها فتعتقد أنّه وليد «الحركة الذاتية للمادة» باعتبار أنّ «المادة لا تنفصل عن الحركة، فلا توجد مادة، من دون حركة[1]» أي «أنّ مفهوم الحركة الذاتية يعني أنّ الأشياء والظواهر تحوي في نفسها على دوافع أو مصادر هذا التطوّر[2]».

إذا كان ما تقوله المادية ـ الدارونيّة صحيحاً فهل هي تعتقد أنّ هناك عمليات أخرى تقوم بها «الطبيعة الذاتية» لتطوّر المواد البروتينية الأخرى، بحيث تشكّل كلّ واحدة منها خطّاً تطوريّاً خاصّاً؟ أم أنّها تعتقد أنّ عملية تطوّر الذرّة البروتينيّة، كانت مختصة بالجزيء البروتيني الأوّل، فحسب.

---

(١) المادية الديالكتيكية ـ ص ٩١.

(٢) المصدر نفسه ـ ص ٢٧٢.

وبكلمة أخرى: هل تعتقد المادية - الدارونيّة أنّ الطبيعة «تفضّلت» على جزيء بروتيني أوّل بالتطوّر، في حين حرمت الأجزاء البروتينية الأخرى؟ أم أنّها «سنّت» قانون التطور ليصبح قانوناً عامّاً، ثمّ «تركت» المجال مفتوحاً أمام كلّ الذرات البروتينية، والخلايا الحيّة لتتطوّر بالنحو الذي يؤهّلها للوصول إلى مرتبة الكائن الذي نسمّيه «الإنسان»؟.

أ - إذا كان الجواب هو: نعم، فلا بدّ أن تتطوّر كافّة الذرات البروتينيّة على قدم المساواة، وهذا يعني أن تسلك كلّ ذرّة بروتينية توجد في الحياة نفس الخط الذي سلكته الذرة البروتينية الأولى. ويترتّب على ذلك: أن يدخل كل يوم في طور الإنسانيّة فوج جديد من القردة - أو أيّ كائن تعتبره الداروتيّة الأصل المباشر للإنسان - مغادراً حياة الغابة، والوحشية، بالدفوف والطبول والأناشيد الحماسية.

ب - وإذا كان الجواب هو: لا، فنحن بدورنا نتساءل: إذا كانت حركة المادة هي السبب في وجود الكائنات، وتطورها من مرحلة إلى أخرى، وكانت الحركة ذاتية للمادة فلماذا تطوّرت الذرّة البروتينية الأولى، وحرمت بقية الذرات من التطوّر؟

يقول البروفيسور الروسي «أوبارين»، بعد أن يعترف بأنّ المادة البروتينية التي هي - حسب هذه النظرية- لبّ الحياة، تخضع لناموس التحوّل والارتقاء وأنّها إنّما تحوّلت بمرور آلاف السنوات إلى «الإنسان» بمقتضى هذا الناموس، يقول بعد ذلك:

- «هل إنّ التفاعل الكيمائي، والبيولوجي الذي أظهر الحياة الأولى، إلى الوجود من ملايين السنين لا يزال قادراً الآن

على بعث الحياة على أرضنا هذه وتطويرها إلى الإنسان»؟

ويجيب على ذلك بالنفي، مبرّراً الأمر بقوله:

♦ «لأنّه إذا كان بعث الحياة عن طريق التفاعل المادي الطويل الأمد، لا يزال ممكناً في كواكب أخرى غير كوكبنا (يعني الأرض)، ففي هذا الكوكب ليس له مكان ما دام هذا البعث أصبح يحدث عن طريق أسرع وأقرب، وهو طريق التوالد البشري بالزواج ذلك لأنّ التفاعل الجديد، حلّ محل التفاعل البدائي البيولوجي، والكيمي القديم، وجعله غير ذي لزوم»[1].

وفي هذا الكلام مواقع من التهافت:

١ ـ إذا كانت المادة هي التي أوقفت التطور في الذرات البروتينية بعد شروع الذرة الأولى في رحلة التطور الطويلة، فهل يقصد أصحاب النظرية المادية ـ الدارونيّة أنّ في داخل الحركة «قوة عاقلة مدركة» تقوم بتقسيم العناصر في كلّ مرحلة إلى قسمين: فتجمّد قسماً منها في مرحلتها الأولى، بينما تطوّر القسم الآخر، إلى مرحلة أعلى، ثمّ تقسّم العناصر في مرحلتها الثانية كذلك، فتجمّد قسماً منها وتطوّر القسم الآخر، وهكذا.

وهل كانت المادة ذات الحركة الذاتية متأكّدة من نتائج عملها، عندما قامت بتطوير الذرة الأولى؟

٢ ـ إنّ وجود كمية من «اليورانيوم» التي تتمتّع بتطوّر مادي عالٍ، إلى جنب كميّات كثيرة من المادّة التي لم تصل إلى درجة اليورانيوم،

(١) انظر بحوث "أوبارين» في مجلة "فوكس» عدد يناير ١٩٥٤.

وكذلك وجود الإنسان المتربع على قمة الأحياء الأرضية كلها، إلى جنب كميات ضخمة من الحيوانات دليل واضح على أنّ سبب الحركة والتطوّر ليس ـ على الأقل ـ ذاتياً للمادة، وإنّما هو أمر خارج عنها ومسيطر عليها وهادٍ لها.

٣ ـ إنّ اعتراف أصحاب النظرية الماديّة ـ الداروتيّة بأنّ التطور «ناموس» من نواميس الكون، يعني أنّه ليس خاصّاً بجزء دون جزء، ولا بحالة دون أخرى، وإلاّ لم يكن ناموساً وإنّما مجرّد «أمر صدفي».

ومع ذلك فكيف يمكن الجمع في الاعتقاد بين الإيمان بأنّ التطوّر ناموس، وبين الإيمان بعدم إمكان تطوّر الأجزاء البروتينية الحاضرة؟

٤ ـ إنّ المستفاد من الدراسات الفيزيائية الحديثة أنّ المادّة في أصلها البعيد حقيقة واحدة لا تعدّد فيها ولا تنوّع (وهناك بعض الآيات والروايات التي تصرح بذلك[1] وأنّ جميع الخواص والصفات التي تتميّز بها المركبات المادية والعناصر البسيطة إنّما هي صفات طارئة عرضت على المادة الأصليّة فجعلت من كلّ واحدٍ منها شيئاً متميزاً عن غيره.

وإذا كانت المادة الأصيلة حقيقة واحدة، فكيف يمكن أن ينسب إليها، هذا التنوّع والاختلاف في التراكيب والحركات والأنواع؟

٥ ـ أمّا التوالد الزواجي الذي تقول المادية ـ الداروتيّة أنّه حلّ محل التطوّر البدائي، فليس «تطوراً» لأنّ التناسل وتوليد المثل نوع

---

(١) قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾.
وقال: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾.

من تكثير النوع الواحد، لا أكثر من ذلك. بدليل أنّ الإنسان لا يزال على وضعه منذ آلاف السنوات بالرغم من التوالد المستمر فلم يشاهد أن وُلِد إنسان أرقى نوعاً، من الإنسان المعاصر.

ثمّ إذا كان التوالد نوعاً من التطور، فهل إنّ القردة التي تولد أمثالها، تقوم بعملية التطوير؟ فلماذا إذن تطورت إلى إنسان؟

العقل والغريزة، وسقوط النظرية المادية ـ الداروِنيّة

مشكلة النظرية الداروِنيّة أنّها استغلت من قبل الماديات المعاصرة في تفسير الحياة بها تفسيراً ماديّاً، يقوم على أساس الكفر بما سوى المحسوسات.

وبغض النظر عن فشل نظريات الماديات المعاصرة في تفسير مبدأ الحياة، فإنّها لا تزال متمسّكة بمادية الإنسان والحياة، على اعتبار أنّه لا شيء سوى مادّة بسيطة غيّرت نفسها بنفسها، وتطوّرت تطوّراً ذاتيّاً، حتّى وصلت إلى هذا الكائن الغريب الذي اسمه «الإنسان».

ولا نريد هنا أن نسجّل تخبطات المادية في قضايا الإنسان، ولكنّنا نريد الإشارة فقط إلى موضوع هام، وقعت فيه المادية في غلطة كبرى، هو موضوع: «العقل الإنساني، وغريزة الحيوان».

والواقع أنّ موضوع العقل البشري يعتبر لحدّ الآن سرّاً من الأسرار لم يهتدِ العلم إلى حقيقته، ولم يتوصّل إلى حلّ هذا اللغز المحيّر. ويقول الدكتور أحمد البطراوي:

- «ولا شكّ أنّ استحداث الحياة من الجماد، سرّ كان ولا يزال محجوباً عن بصيرة العلماء، ولكنّه ليس بالسرّ

المحيّر الوحيد، فمثله، ولا يقلّ عنه روعة وعجباً استحداث العقل البشري المبدع في واحد من ذلك الحيوان الذي حيّر استحداثه أبا العلاء الذي قال: والذي حارت البريّة فيه ... (حيوان مستحدث من جماد) وهكذا يكون استحداث حيوان عاقل هو الإنسان أدعى للعجب والحيرة مرتين، ولعل هذا هو السبب في أنّ دراسة الإنسان لنفسه كانت تسير عل مهل وكان خطوها وئيداً. وهو فعلاً ما زال حتّى الآن في حيرة من نشأة الحياة، وفي عجب من نشأة عقله»[1].

ولكن النظرية المادية - الداروننيّة ترى أنّ العقل والفكر ليسا سوى عمليات المخ، وأنّ الإدراك ظاهرة ماديّة توجد في المادّة حين بلوغها مرحلة خاصّة من التطور والتكامل.

وتقول في هذا المجال:

♦ «لا يمكن فصل الفكر عن المادّة المفكّرة، فإنّ هذه المادّة هي جوهر كلّ التغييرات»[2].

وتقول:

♦ «إنّ شعورنا وفكرنا - مهما ظهرا لنا متعاليين - ليسا سوى نتاج عضو مادي جسدي، هو الدماغ»[3].

أمّا الدليل الذي تقدمه لذلك فهو:

---

(١) مع نظرية التطور. تأليف السيد محمد النوري ص ٩٠ نقلاً عن: الجنس البشري في معرض الأحياء.

(٢) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص ١٩.

(٣) لودفيج فيورباخ ص ٥٧.

♦ إ«نّ نقص تطوّر مخ أحد الأفراد، هو أكبر عائق أمام تطور شعوره وفكره، وهذه هي حالة البَلَه، فالفكر نتاج تاريخي لتطوّر الطبيعة، في درجة عالية من الكمال، تتمثّل لدى الأنواع الحيّة في أعضاء الحس والجهاز العصبي وعلى الخصوص في الجزء الأرقى المركزي الذي يحكم الكائن العضوي كلّه ألا وهو المخ»[1].

وتبعاً لهذا التصوّر الخاطئ فقد اعتقدت المادية ـ الداروينيّة أنّ النشاط العقلي في الإنسان والحيوان يرتبط ارتباطاً كليّاً بوزن المخ.

تقول الداروينيّة:

♦ «يمكن أن نقول على وجه الإجمال: إنّ الدماغ الصغير هو دماغ الغريزة، والدماغ الكبير هو دماغ العقل، وهذا هو ما يمكن استنتاجه بالاستقراء، فكلّما زاد حجم الدماغ اتجهت أعماله نحو الرؤية والتدبّر، أي العقل، وخلصت من الغريزة، فأدمغة الحشرات والقشريات والعناكب، أي الحيوانات المفصلية، قليلة الحجم ولذلك يبدو على أعمالها كأنّها كلّها غريزية، والحال كذلك في ما هو دون هذه الحيوانات ثمّ يكبر الدماغ في الأسماك ويتدرّج في الكِبر في الحيوانات البرمائية، ثمّ الزواحف، ثمّ الطيور ثمّ اللبونات إلى أن يبلغ أكبر حجمه في القردة العليا والإنسان. وبنسبة كبر الدماغ يكون تغلّب العقل على الغريزة»[2].

---

(١) المادية والمثالية في الفلسفة ص ٧٤-٧٥.

(٢) «نظرية التطور وأصل الإنسان» ص ١٤٣ـ١٤٢.

وإذا كانت القضية لا تتعدّى حجم «المخ» إذن «فإنّ الاختلاف بين العقل الحيواني والعقل البشري غير أساسي»[1] أي: «ليس ثمّة فرق نوعي بين الإنسان والحيوان في القوى العقلية»[2]

* * *

ملاحظات

هل أنّ الكون والحياة لا تعني إلاّ المادة؟

والجواب: - بالتأكيد.. لا. فالكون مادة وروح معاً. أمّا المادة فهي التي نلمسها ونشاهدها، وندخلها تحت المبضع، وأمّا الروح فهي التي تحرّك هذه المادّة وتطوّرها: المادّة هي جسد الشجرة، أمّا الروح فهي حياة الخلايا التي تتغذى وتعمل داخل الشجرة.

وإذا أنكرنا وجود الروح فإنّنا سنجابه مجموعة من التساؤلات التي لا يمكن الإجابة عنها. على الأقل بالنسبة إلى الإنسان.

أ - فلو فرضنا أنّه لا شيء في الإنسان سوى هذا الذي نراه ونلمسه منه، فما هي هذه الحياة المتنقلة بين أولاده وأحفاده.

إنّ قطعة الحديد لا تستطيع أن تفسر لنا وجود أطنان من الحديد. لأنّ الحديد ليس أكثر من «مادة» وهكذا الأمر بالنسبة إلى الخلية الأولى إذا اعتبرناها «مادّة» لا أكثر، فإنّها لا تستطيع أن تفسّر لنا وجود الحياة في الملايين من بني الإنسان.

ب - ما هي الإرادة الإنسانية؟ وكيف يستطيع كائن مادي بحت أن «يريد» شيئاً ويتحرك إليه؟

---

(١) «تسلسل الإنسان» تأليف: تشارلس داروِن.

(٢) « تسلسل الإنسان» تأليف: تشارلس دارون.

ج ـ ما هو العقل؟. وكيف يحدث النشاط العقلي؟

د ـ إنّ كلّ واحد منّا يعرف تمام المعرفة: إنّه شيء وراء الجسد. فالجسد «شيء» و «الأنا» القابع فيه «شيء آخر» أي أن يده ورجله، ليست «الأنا» التي تتحدّث، وتفكّر. هذا الأنا شيء آخر. فما هو؟.

هـ ـ الثابت أنّ الإنسان يفقد في كلّ دقيقة أربعمائة ألف خلية من خلايا جسمه، تحلّ محلها أربعمائة ألف خلية جديدة، هذا شأنه طوال الحياة. ويشمل هذا التجديد كلّ ما في الجسم ما عدا خلايا الدماغ، من البشرة على سطحه إلى صمّمات القلب، ويحدث أنّه خلال كل ٧ ـ سنوات تتجدّد خلايا الجسم كلّها تقريباً، ويعود هذا الجسد المادّي خلقاً جديداً.

وبالرغم من هذا التجديد المستمر فإنّ الإنسان لا يشعر إطلاقاً أنّه قد تغيّر، سواء تغيّرت هذه الخلايا مرّة، أو مرات عديدة.

تصوروا: إنّ رجلاً يتجاوز عمره سبعين عاماً يكون قد تبدل جسمه عشر مرات، وبالرغم من ذلك فإنّه يشعر أنّه لم يتغيّر منه شيء، فهو يحكي قصّة طفولته، وشبابه بقوله: «أنا في طفولتي صنعت كذا» «أنا .. كنت أذهب مع أقراني إلى المسجد».

فهو، **أولاً** ـ ينسب إلى «نفسه» تلك الأحداث بالرغم من أنّه مادة جسمه قد تبدلّت عشر مرات.

وهو **ثانياً** ـ يظلّ يحنّ إلى ما مضى، وقلبه يخفق للعودة إلى أيام شبابه.

وهو **ثالثاً** ـ يتذكّر كلّ أحداث الطفولة، بالرغم من أنّ خلاياه التي تلقّت المعلومات حينذاك تكون قد تبدّلت أكثر من مرّة.

فكيف يمكن حدوث مثل ذلك لو لم نعتبر الإنسان روحاً، وجسداً وبهذا فقط يمكن تفسير الإنسان بأنّه تحوّل دائم في استمرار مقيم، تجدّد في الجسم وثبات في الروح.

* * *

هذا، ومن جهة أخرى فقد اكتشف العلم الحديث عدم الارتباط بين «حجم المخ» وبين «النشاط العقلي».

وذلك لأنّ وزن مخ الفيل والحوت يفوق بكثير وزن مخ الإنسان بعكس نشاطهما العقلي.

يقول سلامة موسى:

♦ «ليس في العالم الآن حيوان له دماغ في قدر دماغنا أو أكبر إلاّ الفيل والقيطس»[1].

وإذا اعتبرنا الوزن النسبي في المخ، مسؤولاً عن النشاط العقلي، كما قد تصرح به الدارونيّة، باعتبار أنّ نسبة وزن المخ في الإنسان بالنسبة إلى جسمه هي: ١/ ٤٦ بينما هي في الفيل ١/ ٦٠٠، وفي الحوت ١/ ٨٠٠، وفي القردة ١/ ١٨٠ أي: إنّ دماغ الإنسان بالنسبة إلى جسمه أكبر من دماغ الفيل بالنسبة إلى جسمه.

... إذا اعتبرنا ذلك فإنّا نجابه حقيقة أخرى، هي: أنّ الثعابين تتمتّع بدماغ أكبر، بالوزن النسبي من دماغ الضفادع، ولكنّها مع ذلك أقلّ عقلاً[2].

بالإضافة إلى أنّه قد وجد هناك نوع من القرود الصغار تعيش في

---

(١) «نظرية التطور وأصل الإنسان» ص ١٥٤.

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٥.

أمريكا الجنوبية تبلغ النسبة بين دماغها وأجسامها أكثر من ١/ ١٨، وهي نسبة عالية جدّاً إذا ما قورنت بالوزن النسبي لمخ الإنسان المعاصر: ١/ ٤٦، وهكذا الأمر في المقارنة بين مخ البشر بعضهم مع بعض.

فمتوسط حجم الدماغ في الإنسان الحاضر ١٣٥٠ سم[٣] وهو في إنسان، «نياندرتال» المنقرض الذي كان ولا شك دون الإنسان المعاصر حضارةً وذكاءً، يبلغ ١٤٠٠ سم[٣].

كما أنّ حجم المخ عند بعض العباقرة - مثل الفيلسوف الشهير كانت، والكاتب الشهير أناتول فرانس - كان قريباً من الحدّ الأدنى لحجم الدماغ عند سليمي العقول.

يقول الدكتور ألكسيس كاريل «الحائز على جائزة نوبل»:

- «إنّ الروح هي جانب من نفسنا المحددة لطبيعتنا والذي يميّز الإنسان عن جميع الحيوانات الأخرى.. ونحن غير قادرين على تعريف هذه الذات المألوفة والشديدة الغموض... ثمّ ما الفكر؟ ذلك الأمر العجيب الذي يعيش في أعماق ذاتنا من غير أن يستهلك أيّ قدر قابل للقياس من النشاط الكيمائي؟. هل يتصل بأشكال النشاط المعروفة؟ هل يمكن أن يكون منظّم الحياة، وأنّه - مع تجاهل الأطباء له - أهمّ من الضوء قطعاً؟

إنّ العقل مخبأ داخل مادّة حيّة يهمله الفسيولوجيون والاقتصاديون إهمالاً تامّاً.

ومع ذلك فإنّه أعظم قوة في هذا العالم فهل هو نتاج الخلايا العقلية؟ مثلما ينتج البنكرياس الأنسولين، وينتج الكبد الصفراء؟

ومن أيّة مواد يفرز؟ هل يأتي بمواد كانت موجودة سلفاً كما يأتي الجلوكوز من الجليكوجين أو الفيبرينوجين»[1]؟.

وبالرغم من تأكيد كلّ العلماء، بأنّ النشاط العقلي لا يزال أمراً مجهولاً فإنّ المادية - الداروينيّة تصرّ على اعتباره عملية مادية تخضع للظروف الخارجية، وتتطوّر كما يتطوّر أي كائن آخر. وهي تزعم: أنّ الحياة العقلية لا تعدو أن تكون عبارة عن أفعال منعكسة، فالتفكير يتركب من استجابات كلامية باطنة يثيرها منبّه خارجي، ولذلك فإنّها تفسّر الفكر والنشاط العقلي كما تفسّر عملية إفراز الكلب لعابه عند سماعه خطوات من يحمل له طعاماً، فكما أنّ الإفراز رد فعل فسيولوجي لمنبّه شرطي، وهو صوت قدم حامل الطعام كذلك الفكر هو رد فعل فسيولوجي لمنبّه شرطي، كاللغة التي أشرطت بالمنبه الطبيعي مثلاً.

ولكن هذا الرأي خاطئ بلا تردد:

فأولاً - إنّنا نجد أنّ المادة تخضع للمحيط الذي توجد فيه، بينما لا يخضع الفكر للمحيط إطلاقاً. فالإنسان يتصرّف في المحيط، ويكيّفه وفق رغبته. فيصنع الحضارة ويبدّل المناخ، ويغيّر البيئة، من دون أن يتحكّم في نشاطاته هذه عوامل البيئة والمحيط. بل العكس فإنّ العقل هو الذي يتحكم في البيئة ويقلّبها حسب أغراض الإنسان الخاصّة.

وثانياً - إنّ اعتبار النشاط العقلي مجرّد استجابات عضلية وغددية في جسم الإنسان بتأثير منبهات داخلية أو خارجية لا يمكن أن يبرهن على أنّ الفعل المنعكس هو حقيقة الإدراك، إذ من

---

(١) الإنسان ذلك المجهول ص ٩٨-٩٩.

الواضح أنّ «رد الفعل» ليس إلاّ نتيجة الإدراك، وليس هو الإدراك ذاته، فإفراز اللّعاب في مثال الكلب إنّما جاء نتيجة إدراك الكلب أنّ صوت خطوات حامل الطعام يعني بالنسبة إليه حضور الطعام. فالكلب أدرك حضور الطعام فأفرز اللعاب. ولم يكن الإفراز مجرد عمل آلي بحت.

وثالثاً ـ إنّ نشاط الإنسان العقلي لا ينحصر في إحداث ردّ الفعل، فحسب، فهو قد يجلس في غرفة مريحة من دون أن يكون هناك أيّ منبّه خارجي فيضع الخطط أو يسجل آراء صائبة في الموضوعات الفلسفية، أو يخترع العقول الإلكترونية بالرغم من انعدام أي منبه خارجي. ويمكن للواحد منا البرهنة على ذلك بنفسه أيضاً. فهل نحن نفكّر دائماً لأنّنا نواجه أحداثاً تتطلّب منّا التفكير؟

أليس في كثير من الحالات نحن ننتج الفكر ابتداءً.

ورابعاً ـ إنّنا نجد أنّ الفأر يهرب حين يرى القط. فهل هو يدرك الخطر الناجم من وجود القط؟ أو أنّ هروبه مجرّد عملية استجابة للفعل المادي؟

إنّ هذا التفسير، هو تفسير خاطئ إذ إنّ هناك فرقاً كبيراً وواضحاً بين ظاهرة تدحرج الحجر حين يركله الإنسان، وبين ظاهرة هروب الفأر في المثال السابق.

فتدحرج الحجر ليس أكثر من الاستجابة للركلة، أمّا هروب الفأر فإنّه ليس استجابة لرؤية القط، بل استجابة للخوف منه، والخوف هو إدراك للخطر.

ويدلّ على ذلك: إنّ استمرار الحجر في التدحرج يتناسب مع قوّة الركلة ومدى المقاومة التي تقع في طريقه، بينما هروب الفأر

يتناسب مع مدى خوف الفأر، كما أن تباطؤه في الركض هو نتيجة مدى شعوره بالأمن والسلام.

وخامساً ـ إنّ الماديّة الداروِنيّة عندما تربط الفكر بمنبه خارجي تضطر لفرض «منبه» ـ مهما كان بعيداً ـ لإثارته. ولهذا فإنّها تعتبر «اللغة» ـ مثلاً ـ هي التي تقوم بدور المنبّه الخارجي.

وتقول:

- «من جملة أسباب سيادة الإنسان أنّ له لساناً ينطق. ولو لا هذا اللسان لما انتفعنا بأيدينا وعقلنا إلاّ قليلاً[1].»

وتقول:

- «يقال إنّ الأفكار تأتي في روح الإنسان قبل أن تعبّر عن نفسها في الحديث، وإنّها تولد دون أدوات اللغة، إلاّ أنّ هذا خطأ تماماً فمذ ما كانت الأفكار، التي تأتي في روح الإنسان فلا يمكن أن تولد أو توجّه إلاّ على أساس أدوات اللغة، فاللغة هي الواقع المباشر للفكر»[2].

ولكن الحقيقة هي: إنّ اللغة ليست إلاّ أداة لتبادل الأفكار، وليست هي المولِّدة للفكر، وهذا ما يجده كلّ إنسان من نفسه، حيث يفكر فينطق لا أنّه ينطق فيفكر.

بالإضافة إلى أنّنا نجد الأخرس، وهو يقوم بنشاط عقلي رفيع، من دون أن يسمع كلمة واحدة أو ينطق بكلمة واحدة. ربما في حياته كلها.

---

(١) «نظرية التطور وأصل الإنسان» ص ١٥٥.

(٢) «المادية والمثالية في الفلسفة» ص ٧٩ـ٧٨.

بالإضافة إلى أنّ ظاهرة «تراسل الأفكار» تنفي بقوة هذا الزعم الخاطئ، حيث يكون هنالك إنتاج للفكر في الوقت الذي لا توجد الوسائل المادية.

يقول الدكتور ألكسيس كاريل:

- «إنّ البصر المغناطيسي، وتراسل الأفكار معلومات أوليّة للملاحظة العلمية، وفي استطاعة من وهبت لهم هذه القوّة أن يستشفوا أفكار الأشخاص الآخرين السريّة من غير أن يستخدموا أعضاءهم الحسيّة.

كما أنّهم يحسّون بالأحداث السحيقة سواءً من الناحية الفراغية أو من الناحية الزمنية، وتراسل الأفكار كثير الحدوث، ففي كثير من المناسبات، في أوقات الموت أو الخطر العظيم يدفع الفرد إلى إنشاء علاقة معيّنة بشخص آخر، فالرجل الذي كتب عليه الموت، أو كتب عليه أن يكون ضحيّة إحدى الحوادث وإن لم تعقبه الوفاة إثر الحادث، يبدو لصديقه وكأنّه في حالة طبيعية لا غبار عليها، لأنّ شبح الموت يظلّ عادةً صامتاً وقد يحدث أحياناً أن يعلن الشخص الذي سيموت أنّه سيموت عما قريب»[1].

«وهكذا فإنّ معرفة العالم الخارجي قد تصل إلى الإنسان عن طريق مصادر أخرى غير أعضاء الحس.. ومن المحقّق أنّ الفكر قد ينتقل من فرد إلى آخر ولو كانت تفصل بينهما مسافة كبيرة، وهذه الحقائق التي تنتمي إلى علم ما وراء النفس... ومع ذلك فإنّها تكون جزءاً من

---

(١) «الإنسان ذلك المجهول» ص ١٠٢ـ١٠٣.

الحقيقة، وتعبّر عن جانب نادر يكاد يكون غير معروف من أنفسنا يا له من تغلغل غير عادي ذلك الذي ينتج من اتحاد العقل النظامي والاستعداد التلقائي!

حقّاً.. إنّ العقل الذي هيّأ لنا السيادة على العالم المادي ليس شيئاً بسيطاً»[1].

وماذا عن غريزة الحيوان؟

ترى النظرية المادية - الدارونيّة أنّ الحيوانات إنّما اهتدت إلى الأفعال الغريزية، بعد تجارب واسعة أجرتها على نفسها، وأدمنت عليها، حتّى أصبحت عادة موروثة ترثها جيلاً بعد جيل.

والواقع: إن ذلك خطأ فاضح.

أولاً - لأنّ ذلك يعني أنّ الحيوانات كانت تقوم بمحاولتين في كلّ موقف: إحداهما خاطئة، والثانية صحيحة وبعد أن كانت تتأكّد من خطأ إحدى المحاولتين، كانت تلتزم بالمحاولة الصحيحة وهذا يعني أنّ الحيوانات كانت تتمتّع بفكر عبقري رائع في الجرد، والبحث واستخلاص النتائج.

أيّ إنّ الحيوانات كانت تتمتّع بالعقل، ثمّ انقلب العقل لديها إلى غريزة، وهو أمر يناقض فكرة التطوّر! لأنّ العقل أعلى من الغريزة.

ثانياً - إنّ هناك الكثير من الحيوانات التي تقف حياتها وراء غريزتها، بمعنى أنّها تحتاج إلى عمليات غريزية حتّى تستطيع أن تعيش. فلو فرض أنّها حصلت على الغريزة عن طريق التجارب، فلا بدّ أن نفرض أنّها ليست موجودة، بينما هي تعيش بيننا منذ عصور سحيقة جدّاً.

---

(١) المصدر نفسه ص ١٠٤.

ثالثاً ـ إنّ ذلك يعني أن تتطوّر الحيوانات بسبب طول التجارب، وفقاً لناموس التطور، بينما نحن لا نرى أيّ تقدّم في عمليات الحيوانات الغريزية.

فالنحل منذ وجوده على وجه الأرض يبني بيوته على شكل سداسي، ولم يشاهد مورد واحد قام بتغيير هندسة بيوته.

ودودة القز، منذ فجر التاريخ تولد دودة حية تعيش أيام الحياة، ثم تنسج حول نفسها شرنقة، ثمّ لا تموت فحسب بل يسيل جسمها ويستحيل إلى مادّة أولية لا شكل لها، ثمّ تتركّب هذه المادة فتكون جسماً لا نسبة بين شكله وشكل الدودة، يكون فراشة ذات أجنحة وغرائز أخرى غير غرائز الدودة.

فمنذ عرف الناس القز والحرير، وطريقة دودة القز في التحوّل والإنتاج، لم تتغيّر حتّى بمقدار بوصة واحدة.

رابعاً ـ هناك حيوانات لا تدرك نتيجة عملياتها، مثل الفراشة التي تضع بيضها في الطور الثالث من حياتها على أوراق الشجر حتّى تجد صغارها بعد التفقيس غذاءً كافياً، ولكن الأم تكون إذ ذاك قد ماتت. فكيف عرفت هذه الفراشة ـ الأم ـ أنّ عملها هذا سيستفيد منه نسلها الآتي بعد موتها.

خامساً - إذا كانت الحيوانات إنّما وصلت إلى أعمالها الغريزية عن طريق التجارب، فلا يمكن أن تنتقل المعلومات التي تحصل عليها من هذه التجارب إلى أجيالها لأنّ الصفات المكتسبة .. لا تورث.

* * *

وهناك رأي داروني آخر يقول: إنّ الحيوان اهتدى إلى العمل الغريزي عن طريق المحاولات المتكرّرة، ولكنّه انتقل إلى نسله عن طريق التعليم الحيواني، وليس عن طريق الوراثة.

ولكن:

هناك عمليات غريزية تقوم بها الحيوانات بعد موت أمّها، أو قبل أن تمرّ فترة تستطيع فيها الأم «تدريس» صغارها «بنود» الأعمال الغريزية.

فهناك مثلاً «ثعبان الماء» الذي يهاجر الشواطئ إلى أعماق البحر ويضع بيضه هناك، ثمّ يموت تحت العمق السحيق. وبعد أن ينفقس البيض، ويكبر الصغار نوعاً ما، تعود إلى الشواطئ التي كانت تعيش فيها الأم، وكأنّها تعرف خريطة المياه، والجغرافيا معرفة كاملة.

ترى: من أين تعلّمت كلّ ذلك، وهي لم تشاهد أمّها إطلاقاً؟

من هنا فإنّ الصحيح هو أنّ غريزة الحيوان إنّما هي هداية غيبية زوّدها الله بها لتستمر الحيوانات في خدمة الإنسان. وليست نتيجة تجارب، أو تعلّم عند أحد!.

تعثّر الداروينيّة في قضايا النبات

إذا وجّه إلى الداروينيّة السؤال التالي:

لماذا يتطوّر النبات؟

لأجابت على الفور: «الحاجة تدعو إلى ذلك، فمثلاً كانت النباتات تعيش في البحر قبل ملايين السنوات، على صورة نبات بسيط، طريّ الجسم، بحيث إذا تعرّض للشمس لجفّ فوراً. فاحتاج

إلى خشب يحمل رطوبته، ويحتفظ بها لمقاومة الحرارة، عندئذٍ نشأ الخشب للنبات، وبذلك تمكّن من الخروج إلى اليابسة»[1].

ولكن...

إذا كان الأمر كما تقول الداروينيّة، فلماذا لا يزال نبات عشب البحر، الذي تعتبره الداروينيّة ذاتها «مادة النباتات والأشجار في العالم» موجوداً في البحار على حالته الأولى؟

لماذا لا نجد كلّ يوم مجموعة منها تتسلّق ضفاف البحر وتهرب إلى اليابسة؟.

لماذا لا يزال لها «جسم طري، إذا تعرّض للشمس جف فوراً»؟.

كيف تطوّر قسم منه وهاجر إلى القرى والمدن، بينما بقي القسم الأكبر منه يعاني من الضعف والهزال؟.

ثمّ...

إذا كانت الداروينيّة تعتقد باستمرارية التطور ـ كما تصرح بذلك ـ فلماذا ختم التطوّر مسرحيته في النباتات المزهرة؟

إنّ العلم الحديث اكتشف الكثير من أنواع النباتات والأشجار فلماذا لا نجد منذ عشرات الآلاف من السنين أن برز نوع جديد من أنواع الشجر إلى الوجود، مع أنّ الحاجة ماسّة إلى ذلك؟

ثمّ ...

لنفترض أنّ النباتات تطوّرت حسب حاجتها إلى ذلك، فكيف ظهرت الحشرات الغشائية كالنحل، والزنابير الحاملة للقاح الزهور؟

---

(١) «نظرية التطور وأصل الإنسان» ص ١٢٧.

هل إنّ حاجة النباتات إلى الديمومة، هي التي أثرت في الجو فخلقت النحل، والزنابير، وحتّى الرياح اللاقحة؟

إذا كان كذلك، فهل تسمح لنا الداروبنيّة أن نعتقد، بأنّ من الممكن جدّاً أن تخلق في الجو، بعد مدّة غير طويلة الطائرات النفّاثة، والصواريخ العابرة للقارات، والمركبات القمرية، والأقمار الصناعية بصورة طبيعية، لأنّ حاجة الإنسان تدعو إلى ذلك؟

هل عكس النظرية ... صحيح؟!

لو ركّزنا اهتمامنا على جانب «فقدان الأعضاء عند فقدان الحاجة إليها» في الداروبنيّة، وعكسنا النظرية على أساس:

إنّ الإنسان هو أصل الكائنات، ولكن قسماً خاصّاً منه آثر العيش في الغابات، نظراً للنزاع الطويل الذي خاضه مع بني جنسه وانهزم فيه بعضه وانتصر البعض الآخر، فاحتاج إلى المشي على أربع، ليتسنّى له تسلّق الجبال، والأشجار بسهولة، ثمّ احتاج إلى «ذيل» ليكتشف به الحيوانات المغيرة من ورائه، فصار قسم منه، تبعاً لقانون فقدان الأعضاء هذا قروداً وحيوانات أخرى.

ثمّ إنّه وقع بين القسم الذي عاش في الغابات نزاع وعراك، انتهى الأمر بهزيمة بعضهم، والالتجاء إلى الكهوف الظلماء، فأخذ هذا القسم يكيّف نفسه وفق المحيط الجديد، مما أفقده بعض الأعضاء، واضطره إلى التحوّل إلى حيوانات.

ثمّ إنّ بعضاً آخر من بني الإنسان عاش إلى جنب بعض البحيرات، وكان ينزل إليها في أيام الصيف، وقليلاً قليلاً طوّر أعضاءه ليستطيع الغطس لفترات طويلة في الماء، فتبدّلت رئته إلى

«كيس العوم» وتبدّلت جوارحه الأربع إلى زعانف، وبعد مرور آلاف السنوات تبدّل قسم منه إلى أسماك، وحيوانات أخرى.

وهكذا «تطوّر» الإنسان بصورة عكسية إلى أن صار دوداً، فكائنات عديدة الخلايا، ثمّ وحيدة الخليّة، ثمّ لا شيء!

إنّ هذه النظرية التي نقترح لها اسم «نظرية الانحطاط والتنزل» لن تكون ـ بالنظر إلى أدلّة النظرية الداروينيّة ـ أقلّ حظّاً من حيث «الأدلّة» العلمية من النظرية ذاتها.

وأظنّ.. أنّ نظريتنا هذه هي أكثر روعة وجمالاً، وأكثر دراماتيكية من أصل النظرية.

* * *

«.. هذا ومن ناحية أخرى فإنّه: يمكن الادّعاء بأنّ أصول الأحياء كانت في بدء الخلق متباينة بأقصى ما يكون من التباين وعدم التشابه، فلم يزل كلّ حيّ يخلف نسلاً يشبهه بناموس الوراثة ويباينه بناموس المباينة، لكن بما يقرّبه إلى فرد آخر. فلم تزل تلك المباينات مع الأجداد تزيد المشابهات مع سائر الأفراد، وتنازع البقاء يلاشي الضعيف، والطبيعة حسب النظرية الداروينيّة تنتخب القوي حتّى صارت التباينات التي قلنا إنّها مع غير المشابهات ثابتة، فتألفت منه الأنواع الموجودة.. وله شواهد على مذهب هؤلاء، فالحيّة مثلاً تعدّ الآن من جنس الدبابات، ولا تجتمع معها في الأصل بل أصلها من ذوات الأرجل، وقلّ مثله في الحيوانات المنحطة التي يذكرها «بخنز» وغيرها فإنّها الآن تؤلف جنس المنحطات وهي بعيدة في الأصل منها»[1].

---

(١) "نقد فلسفة دارون» تأليف الشيخ محمد رضا آل العلامة

عمر الأرض لا يكفي

إذا كان عمر الأرض حسب القناعات العلمية في حدود أربعة مليارات ونصف عام فإنّ هذه المدّة لا تكفي إطلاقاً لحصول الحياة، ومن ثمّ التطوّر من الحيوانات وحيدة الخلية، إلى الإنسان المعقّد الأجهزة...

يقول «دي نواي» في هذا الصدد:

- «لا بدّ أن لا ننسى أنّ الأرض لم توجد إلاّ منذ أقل من خمسة مليارات من السنين، وأنّ الحياة - في أية صورة من الصور - لم توجد إلاّ قبل مليار سنة، عندما بردت الأرض»[1].

للخروج من هذا المأزق تقترح الداروينيّة - على لسان الأستاذ طمسن - أن تكون الحياة قد هبطت إلى الأرض من كوكب آخر. فيقول:

- «إنّه من الضروري أنّ الحياة لم تنشأ على سطح الأرض، بل وردت إليها من أحد الكواكب، بأن سقطت على الأرض بعض الجراثيم العلوية»[2].

التوقف ... لماذا؟

لو فرضنا أنّ التطور، وليس الخلق المستقل بإرادة الله تعالى، هو الذي أوصل الإنسان إلى وضعه الحالي، فإنّ هناك تساؤلاً يفرض نفسه وهو: لماذا توقف التطوّر عند حدّ الإنسان؟

---

(١) Human destin J' P.P 30-36.

(٢) الإسلام في عصر العلم، محمد فريد وجدي ص ٨٠٥.

لماذا لم يتطوّر الإنسان إلى شيء آخر، إلى عملاق يناطح القمر، ويقاوم الموت، ويمتدّ على الأرض، مع توافر الوقت الكافي لهذا التطوّر، واحتياج الإنسان إليه.

يقول سلاّمة موسى، وهو من أكثر المروّجين للنظرية الداروينيّة من العرب:

- «.. ونحن ندرك من ذلك (أي من الحفريات التي جرت حتّى الآن) أنّ الأحياء الدنيا بطيئة التطور، أمّا العليا فسريعة التطور، لهذا لا تزال الأحياء الدنيا التي ظهرت في «الدهر القديم» عائشة بيننا، كما نعرف ذلك من الميكروبات والبكتيريا والخمائر، أمّا الأحياء العليا فسريعة التطوّر، فهي لذلك سريعة الانقراض. ومن هنا تعرف السبب في أنّ الدهر القديم كان أطول جدّاً من الدهر الثالثي مثلاً.

  ونستنتج أيضاً أنّ التطوّر الآن أسرع ممّا كان ونحن نبصر شيئاً من ذلك إذا قابلنا الأحياء الدنيا، فإذا وضعنا مائة محارة في صف واحد وأردنا تمييز كلّ واحدة عن الأخرى لصعب علينا ذلك.

  فالأحياء يسرع تطوّرها بنسبة ارتقائها، ولذلك سيكون التطور في المستقبل أسرع مما كان في الماضي، فالمئات ستأخذ مكان الآلاف والآلاف تأخذ مكان الملايين من السنين»[1].

إذن.. فلماذا توقف هذا التطور الذي يجب أن يكون في الإنسان أسرع من غيره؟ بحكم تربّعه على قمّة الكائنات المتطوّرة.

---

(١) «نظرية التطور وأصل الإنسان» ص ٦٢.

التفسير الكيفي للتطوّر

تقول النظرية الداروينيّة، إنّ التطوّر حصل حسب الحاجة، فمثلاً ظهرت الطيور لأنّ الأرض ضاقت بالزواحف، فطار بعضها، وظهرت الزواحف لأنّ البحار ضاقت بالأسماك، وهكذا، وبما أنّ الأسماك والزواحف كانت تريد البقاء، فقد اختارت تغيير المحيط والكيفية التي تعيش بها. حسب الحاجة.

ولكن...

هذا التفسير ليس أكثر من تفسير كيفي بحت، إذا عرفنا أنّ البشرية عرفت الكثير من أنواع الطيور والحيوانات الأخرى التي انقرضت أو هي في سبيلها إلى الانقراض، ولكنّها لم تشاهد مورداً واحداً اختارت فيها الطيور تغيير المحيط، أو الكيفية التي تعيش بها، ولولا تدخّل الإنسان في قضايا الحيوانات النادرة الوجود، لانقرض قسم كبير منها منذ أمد طويل.

وقد تقول الداروينيّة: إنّ الأمر يحتاج إلى عنصر الزمان.

ونقول: ولماذا لا يحدث عن طريق «الطفرة»؟ وحتّى إذا كان يحدث ذلك عن طريق التدرّج فلماذا لا يرى الإنسان التطوّر المرحلي فيها؟

ربما يكون التطوّر حكرة على الحيوانات القديمة، أمّا الحيوانات المعاصرة، فقد جاءت متأخّرة، فنفد نصيبها منه!

التناقض

في الوقت الذي يصُر أصحاب النظرية الداروينيّة على أنّ التطور وليد الحاجة فإنّهم في الوقت ذاته يعتقدون أنّ التطور قد يتوقف لاحتياجه إلى أسباب غير متوافرة.

فيقول هؤلاء مثلاً: «إنّ الجماعة التي تتفاهم، تعيش وتتعقل أكثر من غيرها، وربما كان افتقار القردة إلى لغة ما أهم ما يمنعها من الرقيّ، فهي تشبه الآن جماعة خرساء من «الناس» قد قطع إبهامها فلا تعرف كيف تخترع آلة ولا كيف تتفاهم. فإذا قيل لك لماذا لا يصير القرد إنساناً، فاذكر: أنّ دماغ القرد أصغر من دماغ الإنسان، وأنّه أخرس، وأن يده بلا إبهام تذكر. فهو لا يتناول شيئاً إلاّ بارتباك وثقل»[1].

ويتغافل هؤلاء عن أنّهم حيث اعترفوا بأن التفاهم من عوامل البقاء الأساسية، أصبح عليهم أن يؤمنوا بأن حاجة القردة إليها حاجة حياتية، وأن تطورها لا بدّ أن يصل إلى مرتبة حصولها على «اللغة» لا أن تتوقف عن التطور لعدم حصولها على .. ذلك!

ويتغافل هؤلاء أيضاً أنهم إذ ينسبون التطوّر الإنساني إلى حجم الدماغ، فإنّهم يخالفون قوانينها الأولية التي تقول إنّ التطور ليس إلاّ وليد حاجة داخلية، ولا ربط له بأي عامل خارجي، ولهذا فعندما يفسرون تطور الإنسان يقولون إنّ حاجته إلى التفاهم والتعامل هي التي كبرت دماغه، من دماغ عادي إلى دماغ بشري. من دون أن يأتوا على ذكر أي عامل خارجي.

ألم يكن الإنسان حسب المزاعم الداروينيّة في يوم من الأيام في مستوى القردة ثمّ تطوّر إلى ما عليه الآن؟.. من دون أن ينظر من

---

(١) «نظرية التطور وأصل الإنسان».

يتفلسف له عن علّة بقاء حيوانيته وتخلّفه، وإنّما تخطّى وضعه الخاص فكبر دماغه بالقوّة، لأنّه كان بحاجة إلى ذلك؟.

فلماذا إذن انعكست الآية بالنسبة إلى القرد؟

ثمّ لماذا نرى:

- «إنّ الحيوانات البحرية الدنيا هي باقية حتّى اليوم على الحالة التي كانت عليها في ابتداء العالم، ولم نجد أنّها تأثرت بقانون التطوّر، وأنّ طوائف الأحياء الكبرى، الدنيا منها والعليا، وجدت منها آثار في أسفل طبقات الأرض وأنّنا نجد كثيراً من أنواع الحيوانات قد كانت في العصور القديمة الأولى أكمل منها .. اليوم.
- ونجد أيضاً في الطبقات بعض حيوانات دنيئة فوق حيوانات عالية جدّاً[1]».

وأيضاً:

- «فإنّ الأشجار القائمة في غابات الهند، والنباتات المتولدة من أزمان بعيدة لا يحدّها التاريخ إلاّ ظنّاً وأصولها تضرب في بقعة واحدة وفروعها تذهب في هواء واحد، وعروقها تسقى بماء واحد. ولكنها مع ذلك مختلفة أشدّ الاختلاف في أوراقها وضخامتها،...»[2].

ولماذا تعيش الحيوانات غير الفقرية كالحشرات، والقشريات والديدان وما هو أحط منها عيشة غريزية كأنها مجرّد نباتات؟

---

(١) «قصة الإيمان» تأليف: نديم الجسر ص ١٨٧.

(٢) رسالة الرد على الدهريين، تأليف الإمام جمال الدين الأفغاني.

ولماذا تعيش الحيوانات الفقرية عيشة غريزية - وجدانيّة، أو غريزية - عقلية مشتركة؟.

ولماذا توقف القسم الأول عن التطوّر في ناحية العقل مكتفياً بالغريزة مع شدّة احتياجها إلى العقل؟

ولماذا لم تتطوّر الزواحف، والأسماك والقرود حتّى الآن؟.

عندما تجابه النظرية الداروينيّة أمثال هذه الأسئلة فإنّها تقول: «ليس يعرف للآن سبب ذلك، وإنّما هذا هو الواقع[1]».

لماذا انقرضت الديناصورات

الديناصورات، اسم لحيوانات ضخمة جدّاً، يعتقد أنّها انقرضت كليّاً بعد أن عاشت مدّة طويلة على الأرض.

فقبل ظهور اللبونات امتلأ العالم بديناصورات كانت تشبه في كثير من هياكلها التمساح والسحلية، والبرص، والورنة، ولكنّها كانت تنمو إلى ما يزيد على ضعفي الفيل، وربما إلى ثلاثة أو أربعة أضعافه.

حيوانات ضخمة تسعى على اليابسة وتسبح في الماء، بحراً أو نهراً وتطير أو تثب في الجو. وكانت تفترس الحيوانات تارةً وتأكل النباتات تارةً أخرى. ولكنّها كانت تبيض ولا تلد. وما زال هناك آثار لبيضها وهو يشبه بيض الزواحف الحاضرة، من حيث إنّه مستطيل على شكل الرغيف الفرنسي.

ولكن هذه الحيوانات مع كلّ ضخامتها، ومع تعدّد أنواعها، ومع أنّها استولت على البحر والجوّ واليابسة، انقرضت. «ولم يبقَ منها

(١) «نظرية التطور وأصل الإنسان».

غير الزواحف التي تعيش في عصرنا، وأكثرها من الضعف بحيث يعيش في السرّ، يختفي في النهار ويخرج في الليل مثل الثعابين.»

لماذا انقرضت هذه الزواحف التي كانت بحق عمالقة الأرض؟

قبل أن نجيب عن هذا السؤال لا بدّ أن نستفسر الداروينيّة عن مقياس الإطالة في العمر، والنقص فيه.

يقول سلامة موسى:

- «ولننظر في قانون آخر يشمل الحيوان والنبات فالمعروف أنّه كلّما كبر حجم الحيّ طال عمره بنسبة كبر حجمه، فالسنديان يعيش أكثر من النخل، والجميز أكثر من الشعير، وكذلك الفيل والقيطس أكثر من الفأر والأرنب، كأن الطبيعة لم تخلق أنواعاً على حدتها وإنّما خلقت أفراداً فقط.

ومما يبصرنا بذلك أنّ طويل الجسم في الإنسان طويل العمر أيضاً على وجه عام[1].

وإذا عرفنا أنّ الديناصورات كانت أكبر حجماً في بعض الأحيان من الفيل بثلاثة إلى أربعة أضعافه، فإنّ سرّ انقراضها يبدو مجهولاً للغاية .. ما دام «طول العمر» يتناسب مع «كبر الحجم» ـ كما تقول النظرية الداروينيّة ـ.

ولهذا فنحن نقترح أن تفسر الداروينيّة سبب موت هذه الحيوانات الضخمة بأنّها قد ماتت بالسكتة القلبية.. الجماعية!

---

(١) «نظرية التطور وأصل الإنسان» ص ٥١.

التنافس أم التعاون؟

على ماذا تبتني أمور الحياة، على التعاون البنّاء، أم على التنافس البغيض؟

تقول النظرية المادية ـ الداروينيّة إنّ الصراع والتنافس هو العامل الوحيد الذي من شأنه تحريك عجلة الحياة، ولكن الواقع أنّ هذا الحكم المطلق ليس صحيحاً.

يقول الدكتور Asheig Montagu:

♦ «من الواضح جدّاً من وجهة نظر دارون أنّ الدوافع الاعتدائية المزعومة في الإنسان في تصادم مع كفاحاته الخلقية. وأنّ وجهة النظر هذه هي كل ما ظهر في الموضوع إلى هذا التاريخ.

وإنّ دارون والدارونيين، لتأثّرهم بروح عصرهم في التنافس الشديد، قد وجّهوا كثيراً من الاهتمام إلى المنافسة بوصفها عاملاً في التطور. وأعطوا قليلاً من الاهتمام إلى عامل التعاون، وقد أطنبوا في وصف ما في طبيعة الأشياء الحيّة من تنافس»[1].

بل إنّ الداروينيّة تعتقد أنّ بقاء الكائن في محيط ليس فيه تنافس، وكفاح، وحرب قد يؤدي إلى انقراضه، فتصرح مثلاً:

♦ «إنّ الأحياء كلّها تتنازع البقاء، فالأسد يزداد قوّة وقدرة على الوثوب ومكراً في الترصد والكمون، والغزال يزداد

(١) «طبيعة الإنسان البيولوجية الاجتماعية» تأليف مونتكو ترجمة الدكتور أحمد حسن الرحيم.

قوة وقدرة على العدو والخفة في الحركة، فكلّ منهما ينازع الآخر في البقاء. الغزلان تزداد خفة وقدرة على العدو وجلدها يزداد مشابهة للرمال أو الصحراء التي تعيش فيها، وحوافرها توافق التربة التي تمشي عليها، وسيقانها تنفتل وتضمر وتقوى. والأسدُ يزداد قوة على الوثوب، وجلده يماثل الوسط الذي يعيش فيه ويداه تزدادان قدرة على البطش وهذا الكفاح يزيد كفايات الأسد والغزال معاً. وإذا لم يكافح الحيوان في وسط انحطّ!

إنّ الحيوان يكافح الوسط ويقاتل، ويناضل، فتنشأ فيه كفايات تساعده على البقاء، وإذا لم يحتج الحيوان إلى مكافحة وسطه انحطّ ونقصت كفاياته، فإذا تغيّر الوسط عجز عن المقاومة فانقرض»[1].

هذا ما تراه الداروني‍ّة في عالم الحيوان، وكذلك ترى أيضاً بالنسبة إلى الإنسان ما دامت تعتبره حيواناً متطوراً.. لا أكثر! ولكن: ألسنا نجد في أبسط تجاربنا أنّ التعاون هو الذي يكسب الإنسان قوة وقدرة؟ وهو الذي يدفع بعجلة الحياة إلى الانطلاق؟

الحلقات المفقودة!

كلّما تزعزع وضع النظرية الداروني‍ّة علميّاً، عمد منظروها إلى الإعلان عن أنّهم اكتشفوا الحلقة المفقودة بين الإنسان والقرد.

وما أكثر «الحلقات المفقودة» التي اكتشفها هؤلاء مرة في نيبال.

---

(١) نظرية التطور وأصل الإنسان ص ٨٦ـ٨٧.

ومرة في جنوب إفريقيا. ومرة في نيجيريا. ومرّة في أوروبا. ولكن - ولا مرة واحدة - كانوا صادقين في ادعائهم.

وإلاّ فلماذا لا يزالون يبحثون عن هذه الحلقة المفقودة التي أصبحت على مرّ الأيام عقدة نفسية تخنق النظريات المادية كلها.

والواقع أنّ الحلقة ليست مفقودة، لأنّها لم تكن في يوم من الأيام موجودة حتّى تفقد.

يقول الدكتور سوريال:

- «إنّ الحلقة المفقودة ناقصة بين جميع طبقات الأحياء، وليست بالناقصة بين الإنسان وما دونه فحسب.

  فلا توجد حلقات بين الحيوانات الأولية ذات الخلية الوحيدة والحيوانات ذوات الخلايا المتعدّدة، ولا بين الحيوانات الرخوية ولا بين المفصلية، ولا بين الحيوانات اللافقريّة والفقرية، ولا بين الأسماك والحيوانات البرمائية، ولا بين الأخيرة والزحافات والطيور، ولا بين الزحافات والحيوانات الثديية»[1].

وإذا كانت الحلقات بين كلّ نوع ونوع في جميع مرافق الحياة مفقودة حتّى الآن، فكيف يجب على الإنسان أن يعتقد بنظريات تبتني على وجود هذه الحلقات؟

(١) «تصدع مذهب دارون والإثبات العلمي لعقيدة الخلق».

اعتراف:

تعترف الداروينيّة بأنّها لا تجد في الحيوانات الدنيا يداً ناقصة تأخذ في التدرج إلى الكمال حتّى تصل إلى يد الإنسان، كما تعترف بأنّها لا تجد يداً ذات ثلاث أصابع تترقى إلى أربع ثم خمس، وهلّم جرّاً.

وتقول:

- «إنّ اليد في جميع الحيوانات التي تعيش في اليابسة تحوي خمس أصابع الآن أو كانت تحتوي على ذلك العدد قديماً، كما هو الشأن مثلاً في حافر الفرس، أو ظلف الثور، أو جناح الطائر، أو زعنفة الدولفين»[1].

ترى لماذا يجوز أن نؤمن بالخلق الواحد في الأصابع، ولا نؤمن به في الإنسان وبقية الكائنات.

أنوثة الرجل:

المرأة بحاجة إلى الثدي، ولذلك فإنّ لها ثديين طبيعيين، ولكن الرجل لا يحتاج إلى ذلك، فلماذا «تعكّر» صفو صدر الرجل وله ثديان صغيران؟

تقول الداروينيّة: هذا دليل على التطوّر... لأنّ في صدره حلمتين قبيحتين يكشف عن وحدة الأصل الذي خلق منه الرجل والمرأة!

ولكن لماذا بقي أثر الأنوثة ظاهراً في الإنسان، بينما لم «يبقَ» أي أثر منها في الكائنات التي هي دون الإنسان في سلّم الارتقاء، كذوات الحافر مثلاً؟

---

(١) «نظرية التطور وأصل الإنسان» ص ١٦٢.

إنّ القضية ليست قضية «الأصل الواحد»، وإنّما هي قضية شيء آخر وراء ذلك، ولهذا فإنّ الفيل الذكر له ثدي كما للإنسان، بينما ذوات الحافر لا ثدي لها، إلاّ ما يشبه أمهاتها وينزع إليها كما يعرض مراراً في الخيل[1].

اعترافات مناهضة

١ ـ يقول الأستاذ «فرخو»: «يتبين لنا من الواقع أنّ بين الإنسان والقرد فرقاً بعيداً، فلا يمكننا أن نحكم بأنّ الإنسان من سلالة قرد، أو غيره من البهائم، إنّ هذا الأمر يحسن أن لا يتفوه به أحد»[2].

٢ ـ ويقول العلاّمة «والاس»، وهو داروني معتدل: «إنّ الارتقاء بالانتخاب الطبيعي لا يصدق على الإنسان، ولا بدّ من القول بخلقه رأساً»[3].

٣ ـ ويقول «ميفرت»: «إنّ مذهب دارون لا يمكن تأييده، وإنّه رأي من آراء الصبيان»[4].

٤ ـ ويقول العلامة «ليس. جون . أكاسيس»:

- «إنّ مذهب دارون خطأ علمي باطل في الواقع، وأسلوبه ليس من أساليب العلم بشيء ولا طائل تحته. وإنّ الاصطفاء الطبيعي إذا ما حلّ محلّ الخلق الإلهي فإنّ الإنسان يكون قد جُرّد من روحه وغدا آلة صمّاء، والواقع أنّ التفسير الحرفي لنظرية دارون يفسح المجال لتأليه

(١) "نقد فلسفة دارون».
(٢) «الإسلام ونظرية دارون» ص ٥٣.
(٣) «الإسلام ونظرية دارون» ص ٥٤.
(٤) «الإسلام ونظرية دارون» ص ٥٣.

«السوبرمان» وتمجيد القوى البدنيّة على أنّها الأساس الوحيد للسلوك بين الناس.

هذا ولا شكّ بأنّ ثمّة فرقاً واضحاً بين تناسل الأنواع وبين خلق الأنواع فالحيوانات تتناسل فينتج نوعها، أمّا اللّه فهو وحده القادر على خلق نوع جديد، والفكرة التي يعتنقها الداروينيون عن تناسل نوع جديد عن طريق نوع سابق، ليست إلاّ افتراضاً اعتباطيّاً يتعارض مع الحقائق الفيسيولوجية الصائبة، ولا يمكن التصديق بأنّ المظهر البيولوجي الذي كان ولا يزال سائداً على وجه الأرض يعود لعمل القوى البدنية دون تدخّل القوة الخالقة مباشرةً»[1].

٥ ـ ويقول الإمام جمال الدين الأفغاني:

«وما رمى دارون في مجاهيل الأوهام والخرافات إلاّ قرب المشابهة بين القرد والإنسان، وكأن ما أخذ به من الشبهة الواهية يشغل بها نفسه عن آلام الحيرة وحسرات العماية»[2].

٦ ـ ويقول المفكّر إدوارد فون هراتمان:

«في سنة ١٨٦٠م كانت مقاومة العلماء الشيوخ لنظرية دارون شديدة، إلاّ أنّه في سنة ١٨٧٠م أخذت هذه النظرية تنتشر في كلّ صقع تقريباً، وفي سنة ١٨٨٠م كان نفوذ المذهب الداروني عامّاً ومطلقاً، وفي سنة ١٨٩٠م بدأت بعض الشكوك تراود خاطر العلماء منه، كما أخذت بعض المقاومات الفكرية تظهر وأخيراً اتضحت

---

(١) «عباقرة العلم»، تأليف جورج سلستي ص ٢٢١.

(٢) رسالة الرد على الدهريين، تأليف جمال الدين الأفغاني ترجمة محمد عبده.

قيمة علامات التصدّع والانهدام. وفي العقد الأول من جيل العشرينات بدا وكأن أيام المذهب أصبحت معدودة، ومن بين كبار العلماء الذين ناهضوا دارون ودحضوا حججه «إيمر» و «غوستاف وولف» و«دي فريز» و«فون» و«الشتين» و«فليشمان» و«رينك» وغيرهم كثيرون[1].

٧ ـ ويقول الأستاذ «كاترفاج» مدير متحف التاريخ الطبيعي بباريس: «إنّنا لا نعلم كيف تكوّنت الأنواع الحيّة، .. ولكنّنا نعلم أنّها غير قابلة للتحوّل، وإنّنا على يقين بأنّ دارون ولامارك لم يكتشفا الناموس لطريقة تكوينها»[2].

٨ ـ ويقول الدكتور سوريال:

- «إنّ مشكلة الحلقة المفقودة بين الأنواع في مذهب دارون، هي مشكلة المشاكل في تمحيص هذا المذهب، وهي لا تزال قائمة على قوتها بعد انقضاء مائة سنة على ظهور كتاب «أصل الأنواع»، واستئناف التعليق عليه بين خصوم المذهب وأنصاره الذين استجمعوا غاية ما استطاعوا لحلّ هذه المشكلة عند الاحتفال بذكرى مرور قرن واحد على ظهور الكتاب، ولم تنحل[3].

٩ ـ ويقول الدكتور قسطنطين جيمس: «إنّ مذهب دارون أسطورة و .. أضحوكة معاً»[4].

---

(١) «صفوة علم اليقين في حقيقة مذهب دارون» تأليف الأسقف خير الله أسطفان.
(٢) «تصدع مذهب دارون والإثبات العلمي لعقيدة الخلق» تأليف سوريال.
(٣) «تصدع مذهب دارون والإثبات العلمي لعقيدة الخلق»: تأليف سوريال.
(٤) «الداروينزم أو الإنسان القردي».

١٠ ـ ويقول الإمام السيد محمد الشيرازي: «ليس هناك أيّ مبرّر للإيمان بنظرية داروين بعد أن زيف العلم الحديث كلّ بنودها بحيث لم تبقَ لها أيّة قيمة، حتّى كوجهة نظر معقولة.

إنّ البشرية مدعوة اليوم، وأكثر من أي يوم مضى إلى نبذ التعصّب الفكري لنظريات غير علمية كنظرية دارون، والعودة إلى رسالات اللّٰه التي تضمن لكافة الشعوب الأمن والاستقرار والهناء، وتقدم لها الجواب الصحيح عن كلّ ما يرتبط بالحياة[1].

١١ ـ ويقول العالم البريطاني الشهير «كابيتان كوارت» «إنّ مذهب الداروينيّة، مذهب خاطئ، وهو أوّل أسباب تأخر المدنية الغربية».

١٢ ـ ويقول «جورج بوهن» صاحب المختبرات السيكولوجية والبيولوجية الشهيرة: «إنّ كثيراً من علماء السكلجة، والبيولوجيا قد حرموا أنفسهم من نتائج البحوث العلمية، بسبب اعتقادهم بنظرية الانتخاب الطبيعية، وأصبحت تجاربهم، عديمة القيمة[2]».

---

(١) رد خاص على سؤال وجهة المؤلف إلى سماحته.

(٢) حوار في الفكر الماركسي ص ٣٤.

عنصر الأسطورة في الدارونيّة

١

الطريقة التي تبنى بها النظريات الماديّة المعاصرة، كيانها الفلسفي تبتدئ بعرض «فرضيّة» منمّقة كقاعدة فكريّة، ثمّ ببناء فرضيّة أخرى عليها، ثمّ باستنتاج فرضيّة ثالثة منهما، ثمّ بقولية الفرضيّة المستنتجة، في قالب أسطوري رائع، وإطلاق كلمة «العلمية» عليها.

ولكي نلمس هذا النوع من التدليس العلمي لا بدّ من ملاحظة عنصر الأسطورة في نظرية نشوء الكون، كما عرضها برتراند رسل، الأسطورة الجميلة التي يُطلق عليها الماديون - مع الأسف - لقب العلمية، ثمّ تبني عليها قناعاتها الفلسفية التي تطلق عليها - مع الأسف.. أيضاً - لقب «العلمية».

يقول برترند راسل:

- «روى مفستوفليس قصة الخليقة إلى الدكتور فاوست قائلاً: دار السديم الحار عبثاً في الفضاء عصوراً لا تُعدُّ ولا تحصى، ثمّ بدأ يتقولب فخرجت منه الكواكب وبردت، فتكوّنت البحار وهي تغلي. وارتفعت الجبال واضطربت ومن كتل الغيوم السوداء هطلت أمطار غزيرة فغمرت قشرة الأرض المائعة. وأخذت نطف الحياة تنمو

في قاع المحيط وتكبر بسرعة لتشكّل أشجار الغابات والنباتات الضخمة، ثمّ ظهرت وحوش البحار تتناسل وتتنازع وتبتلع بعضها البعض ثمّ تنقرض. ومن هذه الوحوش تسلسل الإنسان فجاء عاقلاً عارفاً بالخير والشرّ ومتعطّشاً للعبادة. ولمّا رأى أنّ العالم الهائج المريع الذي يحيط به في تغيّر دائم وأنّ الكائنات تتنازع لكي تحظى - بأيّ ثمن - بلحظات قليلة من الحياة قبل أن يداهمها الموت، قال لنفسه: لا بدّ وأنّ لهذا الكون غاية حسنة ولكنّها خفيّة، إذن علينا أن نقدّس شيئاً ما، ولا يوجد في العالم المنظور شيء يستحقّ الإجلال والاحترام. وعندما تبع الإنسان غرائزه التي ورثها عن أسلافه من الحيوانات المفترسة دعا ذلك بالخطيئة وطلب المغفرة من الله. ولمّا رأى حاضره سيئاً صيّره إلى أسوأ، أملاً منه بمستقبل أفضل، ومن ثمّ اتجه إلى الله بالشكر لأنّه منحه القوّة اللازمة للتنازل حتّى عن تلك المسرّات التي كانت في متناول يده، عندئذٍ ابتسم لله»[1].

هذه الأسطورة التي تمثّل سلسلة الأعصاب، في الأقانيم الفكرية الثلاثة: التطوّر الداروني. وعلم النفس الفرويدي. والديالكتيك الماركسي. تلخّص لنا الشكل الهرمي الأسطوري للقضايا التالية:

١ ـ نشوء الكون وتطوّره.

٢ ـ نشوء الحياة وتطوّرها.

٣ ـ نشوء الديانات والعبادات والطقوس.

---

(١) A free man's Worship, in Mysticism and Logic Ailen and Vnwin, London 1951.

وليست المشكلة في التشكيلات الأدبية في هيكل هذه الأسطورة، ولكنّها في أنّ دراويشها يريدون إدخالها في عقل الإنسان ليس باعتبارها أسطورة جميلة تدغدغ فيه شهوة التطلّع وتخصّب فيه الخيال الشاعري، بل كحقيقة «علميّة» يجب التنازل لها عن كلّ القيم الإنسانية، والقناعات العلميّة، والحقائق الفلسفية.

يقول سلامة موسى، وهو يحاول ربط الدارونيّة، بكلّ ما في الحياة ابتداءً من الأحياء وانتهاءً بالطب، والسياسة، والتعليم و.... إلخ.

- «إنّ لنظرية التطوّر فضلاً آخر في فهم طبيعة الإنسان، فلا يمكن لفيلسوف ما أن يعرف كنه النفس الإنسانية ما لم يعرف تطوّر الجهاز العصبي في الإنسان وعلاقته بالأحياء الدنيا، والعوامل التي جعلته يرقى إلى مستواه الحاضر. بل إنّ فلسفة «فرويد» مبنيّة كلّها على أنّ أهمّ ما في خواطر الإنسان وأحلامه وهواجسه يرجع إلى الغريزة الجنسية التي هي أهم وأقوى غرائز الحيوان. فالحيوان الذي يقاتل ويموت من أجل الأنثى لا يزال حيّاً في الإنسان، حتى في بعض طرق عبادته وفي فنونه الجميلة التي يمارسها الآن وينسبها إلى أرقى الأعمال الذهنية».

ويمضي سلامة موسى في عرض بهلوانيات الدارونيّة ـ الفكريّة قائلاً:

- «بل لا يمكن فهم بعض أمراضنا وكيفية علاجها ما لم نفهم نظريّة التطوّر. فبعض أنواع الجنون «ردّة» من الإنسان إلى الحيوان القديم الذي لا يزال كامناً مقهوراً

فينا قد تغلّبت عليه إنسانيتنا، فبعض المجانين يزحف ويتسلّق ويقعد قعدة القردة.

وقد استفاد الطب الحديث من نظريّة التطوّر فترك علاج الأعشاب، وعمل إلى العلاج بخلاصات الحيوان مثل الهرمونات، ونجح في ذلك، وذلك لأنّ التطوّر يدلّنا على أنّ مصلحة النبات تخالف بل تناقض مصلحة الحيوانات، ولذلك كثيراً ما يحتمي النبات منه بالحسك والمرارة، والسمّ فلا يمكن أن نعتمد عليه في اتخاذ دواء منه. أمّا الحيوان فإنّ تركيبه هو تركيبنا، وما ينفعه ينفعنا ولا عبرة بما يحدث اتفاقاً، كإمكان التعالج من الحمى بنبات «الكينا» كما أنّه لا عبرة بأنّ الحيوان يعيش على النبات، لأنّ للنبات مصلحة في ذلك لنقل بذوره من مكان إلى آخر، وكثير أيضاً من جرائم المجرمين يرجع إلى أنّه «ردّة» لأنّ أسلافنا كانوا يمارسون هذه الجرائم كأنّها أعمال لا حرج فيها، وكذلك رجل التعليم لا يمكنه أن يدرك طبيعة الطفل ما لم يفرض أنّه حيوان صغير فيه غرائز القردة، وإنّ طبيعته تتكشّف من الحيوان إلى الإنسان، ففي الطفل والقرد كليهما غريزة الاستطلاع، وفيهما حبّ التسلّق والتلصّص، وفي أحلام الطفل ما يذكّرنا بحياة الغابة والنوم على الأشجار، إذ معظم ما يراه الطفل في نومه: أن يهوي ساقطاً، فينتبه قبل أن يتردّى، وهذا الحلم هو من الوساوس القديمة التي كانت تنتاب أسلافنا وهم يعيشون كما تعيش القردة الآن على الأشجار.

ويستمر سلامة موسى في سرد «معجزات» الداروනيّة فيقول:

- «ومن العلوم التي أحدثها التطوّر علم «اليوجنية» الذي يقصد به إصلاح ذرية الإنسان بأساليب صناعية. لأنّه إذا كانت الطبيعة قد عملت لترقية الإنسان في الماضي، كما هو مدلول نظريّة التطوّر، فمن واجب المدنية أن تعمل لترقيته في المستقبل. ففكرة التطوّر قد شملت جميع المعلومات البشريّة تقريباً وبها يمكن تفسير أشياء عديدة كانت قبل ذلك غامضة لا يمكن فهمها»[1].

إنّ الذي نسيه سلامة موسى هنا هو أنّ الداروනيّة لم تتعدَّ بعد منطقة «النظرية» وأن كتابه الذي جاء في ذلك يحمل اسم «نظريّة التطوّر» وعلى ضوء ذلك فلا يجوز إطلاق الأحكام الكيفية عن الكون والإنسان والطب والتعليم، بالاعتماد عليها.

ولكنّ أصحاب النظريات الماديّة لا يهمهم منهج البحث، بمقدار ما يهمّهم النتائج الحاصلة منه. فالمعادلة الوحيدة التي يؤمنون بها إيماناً عميقاً هي أنّ النظريّة + النظريّة = حقيقة علمية!

٢

إذا تتبعنا البنود الرئيسية لنظرية دارون، نجد أنّها تحوّلت من بنود في «نظريّة فلسفيّة» إلى مناطق غير محدودة لنمو الخيالات والخيال الأسطوري لدى أصحابها.

وعرض قصير لهذه البنود والمستندات الفلسفية التي تدعمها يكفي لإبراز هذه الحقيقة.

---

(١) «نظرية التطور وأصل الإنسان»ـ الطبعة الخامسة ص ٢١ـ٢٣.

أ - يقول البند الأوّل: إنّ الحياة ابتدأت من حقيقة واحدة ثمّ تنوّعت إلى الفصائل المتباينة، والأنواع المختلفة.

ب - إنّ مساحة الأرض مساحة ضيّقة لم تكن تصلح لاستيعاب الأحياء التي تنوّعت من الأصل الواحد، لقلّة المواد الأوليّة التي تحتاج إليها الأحياء الكثيرة. ولذلك فقد وقع الصراع بين الأحياء في البقاء ممّا أدّى إلى ظهور النتيجتين التاليتين:

الأولى - انتصار الطرف الأقوى في الصراع، وهزيمة الطرف المقابل.

الثانية - تطوّر الأحياء حسب الظروف والبيئات.

ج - إنّ الطبيعة مجبولة على انتخاب الأصلح من الأشياء، فالطبيعة كالطير الذي يلتقط الأجود، ويترك الرديء، تحافظ على الموجود الأصلح على حساب الموجود الرديء، وهذا هو سبب تطوّر الأحياء من الخليّة الأولى، إلى الإنسان المعاصر.

د - إنّ التطوّر الذي حدث في الأحياء لم يكن بفعل يد هادية من الخارج، بل بسبب حوافز داخلية كانت تتفاعل في الكائن الحيّ مدّة من الزمان، ثمّ تدفعه إلى حالة جديدة، أحسن من الحالة السابقة.

هـ - إنّ بعض الكائنات حصلت على ميزات صغيرة، عن طريق تغيير البيئة وتراكمت هذه الميزات على مدى السنين، ممّا أدّى إلى توارثها في الأبناء، وبروز اختلافات كبيرة وجوهريّة بين الآباء، والأبناء.

ولسنا في هذا الفصل بصدد مناقشة هذه البنود، مناقشة علميّة، فقد فعلنا ذلك سابقاً، ولكنّنا نريد استكشاف عنصر الأسطورة الذي

نسجها خيال «أنصاف الشعراء» حول هذه البنود، والأدلّة الساذجة التي سجلها الماديون للبرهنة على صدقيتها وواقعيتها، ممّا يدلّ على مدى التأثير الذي تركته النظريّة الداروينيّة في دغدغة الخيال لدى الإنسان.

بعد عرض بنود النظرية الداروينيّة، يبدأ أصحابها في عرض الأدلّة على الوجه التالي:

أ ـ الردّة

اعتبرت الداروينيّة شذوذ بعض المواليد، عن الهيكل الآدمي دليلاً «علمياً» على نظريتها، فاعتبرت مثلاً ولادة طفل له ذيل في الهند، أو ولادة طفلة تشبه القردة في جنوب إفريقيا، أكبر ما يمكن إقامته من برهان منطقي على أنّ أصل الإنسان كان القرد في كلّ مكان.

ونسجت حول ذلك الأسطورة التالية: «إنّ كثيراً من الأطفال إذا اشتدّ بهم الضعف من مرض ونحوه، ظهر على بشرتهم شعر أسود، سواءً أكانوا ذكوراً أو إناثاً، فإذا عاودتهم الصحّة زال الشعر، ومعنى هذا: إنّ قوّة الجسم التي اكتسبها الإنسان حديثاً في إخماد نبات الشعر قد ضعفت فنهضت كفاياته القديمة من غير أن تجد ما يعارضها في الظهور»[1].

وفات هؤلاء أنّ الطب الحديث قد اكتشف اليوم أسباب ظهور الشعر على وجه الطفل المريض أو الطفلة المريضة، وأنّنا لم نعد بحاجة إلى الاعتماد على الأساطير في تفسير ذلك.

---

(١) «نظرية التطور وأصل الإنسان» ص ١٩٤.

كما فاتها أنّ نظريّةً تحاول تقديم تفسير كامل لوجود الأحياء على وجه الأرض يجب أن تقدم أدلّة علميّة مقنعة على ما تقول، ولا يجوز لها إطلاقاً الاعتماد على طفل مجهول ولد أو سيولد، في الهند، أو في جنوب إفريقيا، وله ذيل أو لحم زائد يشبه الذيل!

ب - الحفريات

ترى النظرية الداروتيّة أنّ المتحجرات التي اكتشفها الإنسان تدلّ على تدرّج الأحياء من كائنات وحيدة الخلايا، إلى كائنات عديدة الخلايا، إلى الإسفنج، إلى الطيور، إلى الأسماك، إلى الزواحف، إلى القردة، إلى الإنسان.

مثلاً: لسنا نجد «الإنسان» في الطبقة الأولى من الأرض على بعد ٧٠,٠٠٠ قدم وإنّما نجد كلاًّ من «المحار» و«الإسفنج» و«المرجان» و«الجنبري» و«السمك» و«نبات الألجه». كما لا نجد الإنسان في الطبقة الثانية، وإنّما نجد «الصنوبر» و«النخل» و«الزواحف» و«الطيور» و«الأسماك» و«الحيوانات الكيسية» مثل الكنغر الأسترالي. وأيضاً لا نجد الإنسان في الطبقة الثالثة وإنّما نجد «الثعابين» و«القياطس» و«القردة» و«الأشجار الموجودة الآن». ونجد الإنسان في الطبقة الرابعة على بعد ٦٠٠ قدم فقط، ونجد معه «الفيل» و«ذوات الأربع الصوفية» والأشجار الحاضرة.

وإذا سألت أصحاب النظرية الداروتيّة: وأين عنصر الملاحظة والتجربة في ذلك؟

أجابوا: «إنّ هذا النحو المترتّب من المتحجرات تدلّ على أنّ الأحياء لم تخلق كلّها مرةً واحدةً، وإنّما تدرّجت، فلسنا نجد الإنسان إلاّ في الطبقة الأخيرة، ونجد أنّ الزواحف قد سبقت الطيور واللبونات، ونجد أنّ أوّل ما يظهر من الأحياء في الطبقات العميقة هو الذي في الواقع أبسطها تركيباً، ثمّ يتدرّج الحيّ من البسيط الذي

لم تتخصّص الوظائف في جسمه، إلى المركب الذي تخصّصت وظائف جسمه، كلّ منها في مكان».

وإذا سألتهم مرّة ثانية: وهل أنّ التدرج كان عن طريق الخلق المستقل، أم الخلق المتدرّج، أي أنّ الإسفنج تبدّل زاحفاً، فطيراً، فقرداً، فإنساناً؟ أم أنّه تمّ أولاً خلق الإسفنج، ثمّ خلقت الزواحف، ثمّ الطيور، ثمّ القردة، ثمّ الإنسان؟

أجابوا: إنّ التبدّل كان عن طريق العوامل الداخليّة وكان تبدلاً تدريجيّاً. وذكروا لك الدليل هكذا: «إنّ المتحجّر من الحيوان يدلّنا على الصلة التي تصل بينه وبين ما قبله، فمثلاً متحجرات الطيور تجد لها أسناناً مثل الزواحف، ومتحجرات الفرس تجد لها بدل الحافر أصابع في قدميها مثل الحيوانات التي نشأت منه، وهلم جرّاً»[1].

وإذا قلت: إنّ هذا التقسيم الطبقي لا يمكن أن يكون أساساً للاستقراء العلمي ما دامت الحفريات لم تشمل كافة مناطق الأرض، إنّ وجود طيور لها أسنان، أو فرس عنده حوافر، لا يشكّل دليلاً علميّاً ما دام يمكن تفسير ذلك على أساس شذوذ النوع من الفرس والطير، وإنّ المتحجرات إذا كانت قد تدرّجت في الخلق فلماذا نسي «التدرّج» أن يلف الكائنات بعد هذه الرحلة الشّاقة .. إذا قلت ذلك لأصحاب النظريّة الدارونيّة أجابوا: إنّ سِرّ ذلك لم يكتشف بعد.

* * *

حقّاً إنّ أسطورة المتحجرات تشبه الحكاية الخيالية الافتراضية التالية:

---

(١) «نظرية التطوّر وأصل الإنسان» ص ٥٧ ـ ٦٠

لنفترض أنّ الحرب العالمية الثالثة قد اندلعت، بأعنف وأشد ما يمكن، وأنّ القنابل النوويّة دمّرت كلّ ما على وجه الأرض من إنسان وحيوان، بحيث أصبحت الأرض صحراء قاحلة، لا تحمل على ظهرها إلاّ الآلات المختلفة، ابتداءً من العجلات البسيطة، ومروراً بعربة اليد، والعربة الكارو، والسيارة والقطار، والديزل وانتهاءً بالطائرات الضخمة، والسفن، والغواصات، والصواريخ العابرة للقارات..

ونفترض أيضاً أنّ كائنات حيّة هبطت على الأرض من كوكبٍ ما، وأخذت تفتش وتنقّب ههنا وهناك، وهي لا ترى سوى آلات تختلف في الأشكال والأنواع، كما تختلف في الجودة، والرداءة، لا شكّ أنّها ستقوم بتقسيم طبقي لهذه الآلات، ثم تحاول أن تعرف سرَّ وجودها على أساس من التقسيم الذي قامت بوضعه.

ومن الواضح أنّ بإمكان هذه الكائنات أن تسند وجود هذه الآلات إلى كائن ما تفترض وجوده وتعترف بأنّها هي التي صنعت ذلك، ولكنّها تتملّص من ذلك، وتحاول أن تفسّر الأمور هكذا: إنّ هذه الآلات كلّها تطوّرت من أصلٍ واحد، على سلسلة من المراحل، وإنّها كانت لفترة طويلة تتصارع فيما بينها، وتحاول كلّ واحدة منها أن تسبق غيرها للحصول على قدرٍ أكبر من حصّة الوجود، فكلّ نوع أصيب بالفشل في صراعه انقرض، أمّا الذي انتصر في صراعه تطوّر من نوعٍ خاص رديء إلى نوع آخر أجود. مثلاً: العجلة الوحيدة ـ التي هي بمنزلة الحشرة ذات الخلية الواحدة ـ مارست صراعاً مريراً مع الطبيعة، حتّى بدأت تظهر عليها التغييرات، ممّا أدّى إلى تحوّلها إلى عربات، والعربات ـ هي الأخرى ـ دخلت في صراع مرير قبل أن تتحوّل إلى سيّارة، ثمّ إنّ السيارات حينما ضاقت بها الأرض

فكّرت في الهروب إلى الفضاء والتحليق في الجو، وبدأت تجهد نفسها لذلك، حتّى ظهرت في بعضها الأجنحة، وتحوّلت إلى طائرات.

وإذا قيل لهؤلاء: ما هي الأدلّة العلمية المقنعة على ذلك؟ أجابوا: إنّ هناك تشابهاً كبيراً بين هذه الآلات، فكلّها مثلاً من مادّة الحديد، والبلاستيك، وتتركّب من جسم وعجلات، ومحرّك، كما أنّ هناك بعض السيارات التي تحمل بعض السِّمات الخاصّة بالعربات، وهناك بعض الطائرات التي لها أوصاف السيارة.

وإذا قيل لهم: هل كان هذا التدرّج عن طريق عوامل داخليّة أم خارجيّة؟

أجابوا: إنّه كان بعوامل داخلية، نتجت عن صراعها مع البيئة، وانتهى ببقاء الأصلح، بعد معارك عنيفة، وقاسية، استغرقت وقتاً طويلاً، وطويلاً جدّاً.

ألا ترى هنا أنّ الإيمان بوجود «كائن» عاقل صنع هذه الأشياء أقرب إلى العقل من الإيمان بأنّها هي التي تطوّرت بفعل عوامل خارجيّة.

ج ـ التشابه

ترى النظرية الداروينيّة:

- «إنّ أوّل ما يلفت نظر الباحث هو مشابهة غرائزنا لغرائز الحيوانات، فالذكر منّا يحبُّ الأنثى، والأمّ تحبّ طفلها، مثلما يفعل الحيوان، وصغار الحيوانات تلعب مثل صغارنا، والخوف يفعل بالحيوان مثلما يفعل بنا، فيقف

شعره وترتخي عضلاته ويرتجف جسمه، والحيوانات تحقد ويلذّ لها الانتقام مثلنا»[1]...

وإذا قلت: إنّ رقم المفارقات الملاحظة بين الإنسان المتوحش، وبين أرقى أنواع الحيوان، يتجاوز بشكل كبير أرقام المجانسات؟

قالوا: هذا صحيح، ولكن المفارقات، هي من اختصاص الإنسان ليس لأنّه كائن مستقل، بل لأنّه حيوان متطوّر!

وإذا قلت: ومتى كان التشابه التشريحي دليلاً على أنّ أحد الشيئين المتشابهين أصل للشيء الآخر؟

أجابوا: .. ها هنا!

٣

عندما تطلق النظرية الداروِنيّة أحكامها الكيفية على التاريخ لا تلاحظ فيما إذا كانت هناك شواهد وأدلّة تسندها أم لا. فالذي يهمّها هو السرد الأسطوري الذي يستهوي الخيال. بدل أن يقنع العقل.

يقول سلامة موسى:

- «.. وممّا يدلّ القارئ على عظم قيمة العمود الفقري في التطوّر أنّ الحيوانات الحاصلة عليه أخذت تتقدّم تقدماً رائعاً في جملة نواحٍ من تركيب الجسم وتأهيله للتنازع والبقاء»(!)

ثمّ تبدأ الأسطورة:

(١) انظر «تسلسل الإنسان» لتشارلس دارون.

- «فسمكة اللاجري مثلاً هي أوّل حيوان ظهرت له جمجمة، وإن لم يكن لها فكان في فمها. والأسماك هي من أوائل الحيوانات التي صار لها فكّان تمضغ بهما. والضفادع هي أوّل حيوان ظهر له أصابع في اليدين والقدمين، وهي أيضاً أوّل حيوانٍ حصل على رئة وعلى لسان متحرّك وعلى صوت (!) فإنّ جميع الأسماك خرساء لا تقدر على النطق. والزواحف هي أولى الحيوانات التي صار لجنينها كيس يحفظه. وأوّل قلبٍ يحتوي على أربع فجوات ظهر في التمساح. وأوّل ما ظهر الدم الدافئ في الطيور واللبونات التي لها أكبر مقدار من الدماغ عند مقابلتها بسائر أنواع الحيوان.
- فظهور الفقريات كان من أكبر فتوحات الطبيعة في ميدان الحياة»[1].

إنّ إطلاق الأحكام هذه وتعيين ماذا كان الأول وماذا كان الثاني، من دون أيّة أدلّة، هو نتاج الخيال، وليس نتاج العقل. وهذا ما يفعله أصحاب هذه النظرية.

٤

يعتبر «التنازع من أجل البقاء»، بنداً رئيسيّاً في النظرية الدارونيّة، لأنّه السبب الوحيد للتطوّر وبقاء الأصلح، ويجهد الماديون أنفسهم، بكلّ ما أوتوا من دهاء، للبرهنة على صدق هذا البند، وواقعيته، باعتبار أنّ انهياره يعني انهيار النظرية الدارونيّة، انهياراً تامّاً.

(١) «نظرية التطور وأصل الإنسان» ص ١٠٤ـ١٠٥.

ومع ذلك، فإنّك لن تجد في أيّ كتاب، من الكتب المؤلّفة في الداروينيّة دليلاً علميّاً واحداً على هذا البند الرئيسي، الذي يرتبط به مصير النظرية كلّها، اللّهم إلاّ مجموعة من الأساطير المزركشة وإليك البيان.

١ - في الإنسان...

تقول الداروينيّة:

- «ابتدأ ظهور «الحواس» على سطح الجسم، ولا يزال منها ثلاث على سطح جسم الإنسان، وهي اللمس والنظر والسمع. ويجب أن لا ننسى أنّ الذوق أيضاً نشأ على سطح الجسم، ولا يزال بعض الأسماك يتذوّق الأشياء بسطحه، والفم هو جزء من البشرة الخارجية ينمو معها، أي أنّه ليس جزءاً من القناة الهضميّة نما حتّى وصل إلى البشرة الخارجية، بل هو عكس ذلك جزء من القشرة الخارجية نما ودخل في جسم الإنسان(!) ونجد دليل ذلك «القرش» وهو سمكة غضروفية كبيرة، فإنّ تركيب أسنان هذا الحيوان هو نفسه تركيب فلوسه، أي حراشفه التي تنشأ وهو جنين على بشرته الخارجية»[١].

أما كيف تخصّصت حواسنا بعد ذلك في الرأس؟ فتقول النظرية الداروينيّة:

- «إنّ الإنسان والزواحف والحشرات والأسماك حتّى الديدان فإنّنا نتجه بجانب واحد من أجسامنا، فمن

(١) المصدر نفسه ص ١٤٣-١٤٤.

مصلحتنا أن يحتوي هذا الجانب على أهم حواسنا.
فلذلك لنا رؤوسنا ووجوهنا التي تواجه بها الأشياء وفيها
جميع حواسنا، ولولا هذا الاتجاه لما تمركز الدماغ
والحواس في الرأس»[1].

وهكذا فإنّ الفرق بيننا وبين «الأميبا» هو أنّه قد حدثت فينا أنواع من التخصّص في الأعضاء، فبدلاً من أن ننظر بجميع جلدنا صرنا نخصّ جزءاً منه لهذا العمل، وبدلاً من أن نهضم بجميع جسمنا، صرنا نخصّ المعدة والأمعاء بذلك»[2].

وتقول عن جلد الإنسان:

- «إنّ جميع الحيوانات لا تزال أحياء مائيّة وإن كانت تعيش في غير الماء، فجسم الإنسان مثلاً قد يزن ١٥٠ رطلاً مغمورة في الماء، بل في الماء المالح، ماء البحر، وهو الدم، ما عدا رطلاً واحداً تقريباً هو المصنوع منه بشرة الإنسان التي تحمي هذا السائل، وكذا الحال في جميع الحيوانات. فإنّنا لما خرجنا إلى اليابسة لم نخرج قبل أن نصنع لأنفسنا بشرة جامدة تمنع تبخّر الرطوبة المائية التي داخل أجسامنا. فنحن لا نزال حيوانات مائيّة كما كنا قبل مئات الملايين من السنين، وليس لنا حيلة في اليابسة سوى هذه البشرة الجامدة التي تمنع تبخّر رطوبتنا، وممّا هو ذو دلالة أنّه في حالة نزف كبير في الإنسان على أثر جرح مثلاً لا نزال نستعمل ماء البحر المصفّى، أو الماء

(١) المصدر نفسه ص ١٠٣.
(٢) المصدر نفسه ص ٤٧.

المالح بدل الدم المفقود»[1]!

وفي أهمّ وأعقد عضو في الإنسان، الدماغ ترى ـ النظريّة الداروتيّة ـ ربما بصدق وسذاجة ـ:

♦ «إنّ دماغ الإنسان يفوق دماغ سائر الحيوان بحيث إنّ الهوّة التي تفصله عنها كبيرة جدّاً، فلا بدّ من معرفة الظروف التي دعت إلى هذا التفوق، وإليك أهم هذه الظروف:

١ ـ إنّ الإنسان حيوان له يد لها إبهام(!).

٢ ـ إنّ له عينين في وجهه (!).

٣ ـ إنّ له لغة.

هذه هي العوامل الثلاثة التي ساعدت على كبر دماغه دون سائر الحيوان، فهو يشترك مع جميع الأحياء في أنّه قاسى ضروباً من تنازع البقاء أهلكت منه كلّ ضعيف أو أبله، كما أنّه كابد مشاقّ العصر الجليدي الأخير، وهذه الميزات قد كتبت له التفوّق على سائر الأحياء.

وتضيف:

♦ «وربّما لا يوجد في قصّة التطوّر شيء، باستثناء العين، أعجب من اليد، فإنّنا للآن لا نعرف كيف تطوّرت، إذ لسنا نجد من الحيوانات الدنيا يداً ناقصة تأخذ في التدرّج للكمال حتّى تصل للإنسان، كما أنّنا لا نجد يداً ذات ثلاث أصابع تترقّى إلى أربع، ثمّ إلى خمس وهلمّ جرّاً.

---

(١) «نظرية التطوّر وأصل الإنسان» ص ١١٤.

والأرجح أنّ الحيوان عندما خرج من الماء إلى اليابسة استعمل زعانفه للتسلّق، كما يفعل بعض السمك الآن.. فلما صارت الزعنفة يداً بقيت كذلك إلى أن وصل إلى مرتبة الإنسانية. أمّا في سائر الحيوانات فقد حدث التخصّص فصارت الأصابع حافراً، أو ظلفاً، أو مخلباً، أو جناحاً، واندفعت في الجسم ثانية كما في الثعبان».

- «ومن ذلك نفهم: إنّ المبالغة في التخصّص تؤذي الحيوان وتمنعه من التقدّم لأنّها تؤدّي إلى الجمود، والتطوّر يحتاج إلى المرونة والليونة بحيث يستطيع العضو أن يؤدّي جملة وظائف في وقت واحد. فميزة يدنا هي أنّها أقلّ الحيوانات تخصّصاً. ولليد تأثير في كبر الدماغ، فالدماغ الكبير ذو العقل الحاد يخترع الآلة الحسنة للدفاع أو الهجوم، واليد اللبقة تساعده على تجسيم خياله فكلاهما يعمل لبقاء الآخر ويزيد كفاياته».

وتضيف الأسطورة الداروينيّة:

- «ومن عوامل تكبير الدماغ في الإنسان تحوّل العينين من صدغيه إلى وجهه، فإنّ العينين في جميع الحيوانات الفقارية تقعان في الصدغين، كما هو ظاهر في السمك والطيور والأبقار، فنحن والقردة العليا نمتاز على سائر الحيوان بهذه الميزة العجيبة التي تتيح لنا رؤية الأشياء بعينين معاً لا بعين واحدة، فيستقيم نظرنا للأشياء التي تتجسّم لنا على حقيقتها وندرك أبعادها.

ثمّ إنّ زوال العينين من الصدغين أتاح الفرصة للدماغ بأن

يتسع ويمتدّ من الجانبين.

وممّا ساعد دماغنا على النمو هذه القامة المنتصبة فنحن نحمل حملاً عمودياً فلا يثقلنا»[1]..

أسطورة إلى جنب أسطورة، وخرافة تمتدّ في خرافة، فالإبهام، والأصابع طلعت في الحيوان، وكانت مكشوفة فيه لفترة طويلة، ثمّ فجأةً، اختفت في الثعبان (ربما لخوف منه لأنّه حيوان خطير قد لا تعجبه الأصابع فينهشها بسمّه القاتل) ثمّ ظهرت فجأة، وبلا إنذار مسبق في بعض الحيوانات، ثمّ لعبت الإبهام في المخ فوسعت تلافيفه، ثمّ عرجت على العين، فزحزحتها عن مكانها في الصدغين ووضعتها في مقدمة الوجه، ممّا فتح مجالاً أوسع للدماغ الذي بدأ فوراً يمدّ نفسه في المكان الفارغ الذي أحدثه تزحزح العينين!

ثم امتدت قامة الإنسان فانتهز الدماغ الفرصة، مرّة ثانية لينفخ في نفسه ويكمّل المشوار، بعد أن زال خوفه من السقوط من الجمجمة حيث إنّ القامة أصبحت «عمودية» ممّا جعلها تتمكّن من حمل هيكل المخ الثقيل!

وإذا سألت الداروينيّة: لماذا زحزحت العين من الصدغ، لتستقرّ في الوجه؟

أجابت، على الفور: «السبب هو أنّ آباءنا أرادوا ذلك، واستدلّت بعيني البوم التي أرادت أن تجمع عينيها في وجهها لأنّها «طائر ليلي ودقّة النظر في الظلام أو الغبشة تحتاج إلى الجمع بين العينين[2]».

---

(١) «نظرية التطور وأصل الإنسان» ص ١٥٩ ـ ١٦٢.

(٢) «نظرية التطور وأصل الإنسان» ص ١٨٤.

ولكن لماذا البوم فقط؟ ما ذنب بقيّة الطيور والحيوانات التي تدقّق في الظلام وتحتاج إليه، بصورة كبيرة، ولكنّها لا تزال تعاني من ابتعاد العينين؟

٢- في الحيوان..

أمّا في عالم الحيوان فإنّ أساطير الداروينيّة تتضخّم وتتنوّع بمستوى تضخّم وتنوّع الحيوان نفسه.

ولعلّ أكثر الأساطير الداروينيّة استحقاقاً للتأمّل هي الأساطير التي تتناول، في كثير من السذاجة كيفية اختلاف الحيوانات، وأسباب تنوّع أشكالها، وقد تستحقّ منّا وقفة طويلة لاستخراج «الرموز» و«الإشارات» و«المعاني الإنسانية» المحتملة، بعد أن تعدّت مستوى البحث الأولى، وأخذت تشكّل قصصاً خيالية، تشبه قصص «كليلة ودِمنة» مع فارق «الجمال المفقود» وفقدان الترابط العضوي المسرحي في النظرية الداروينيّة.

وفيما يلي نصوص أمينة من الأساطير التي نسجتها الداروينيّة حول مختلف أنواع الحيوان.

عنق الجمل، تطويل في سبيل العشب:

تقول الداروينيّة:

- «عندما نرى جملاً يسير على الطريق الزراعي ونتأمّل عنقه المديد لا نتمالك أن نذكر أنّ هذا العنق قد طال وامتدّ لأنّ سيقان الجمل قد ارتفعت، فهو يحتاج كي يصل فمه إلى العشب، أن يكون عنقه طويلاً. وإذا سألنا: لماذا ارتفعت سيقانه، فإنّ الإجابة تتضح من كفوفه الطريّة التي تنفرش

على الرمل والحصا، ومن الثفنات الخشنة التي تقيه الجروح عندما يبرك.

وهذا يدلّ على أنّه حيوان الصحارى الجافّة، وارتفاع سيقانه يجعل خطواته واسعة فلا تحتكّ بالرمل والحصا كثيراً، فهو يمشي كأنّه يجري»[1].

وإذا سألت الدارونيّة إنّ هذه الأسطورة، تصلح فقط لإقناع الأطفال إذ أيّ برهان يدلّ على ذلك؟ ولماذا انفردت الجِمال بهذه «الميزة» المفيدة التي تجعل سيرها «كأنّها تجري» ولم تحصل عليها بقيّة الحيوانات؟

فهي لا تجد جواباً كالعادة.

الهجرة الحيوانية:

«إنّ السرطان، هذا الحيوان البحري الضعيف، قد اضطرّه تنازع البقاء إلى ترك البحر والصعود إلى قمم الجبال وإلى تسلّق الأشجار. والزواحف اضطرّت إلى الطيران في الهواء، بل اللبونات نفسها كالخفّاش اضطرت إلى الطيران واعتلاء الهواء كما نزل بعضها (كالدولفين) إلى البحر وأحال يديه إلى زعانف، وبعض الأسماك نزلت إلى قعر البحر على عمق خمسة كيلومترات وتحمّلت ضغط الماء العظيم وصارت تعيش ممّا يتساقط إليها من حطام الأحياء»[2].

---

(١) «نظرية التطور وأصل الإنسان» ص ٦٩.
(٢) «نظرية التطور وأصل الإنسان» ص ٩٧.

الانتحار، احتجاجاً على اللون:

- «إنّ عدداً كبيراً من الأسود مات وانقرض لأنّ جلده كان ظاهراً، فصارت الفريسة تراه على بعد وتحذره، ومات كذلك من الغزلان جميع تلك الأفراد التي كانت ثقيلة الحركة غير متيقظة للعدو، أو كان لون جلدها ظاهراً، أو كانت حوافرها لا توافق تربة الصحراء»[١]..

- «إنّ حيوان الصحارى يشبه لونه لون الرمال بحيث إذا نام «ضبّ» أو «ورن» على سطح الصحراء لم يميّزه الإنسان من الرمال الذي تحته، وإذا نام غزال أو ثعلب اختلط لونه الأغبر بغبرة الرمل، فلا يمكن حيواناً أو جارحاً أن يميّزه ممّا حوله، وحيوان الصحراء لا يبلغ هذه الحالة إلاّ بعد تنازع بقاء طويل، بادٍ فيه كلّ ما كان في جلده لمعة من بياض أو أيّ لونٍ آخر»[٢].

هذا عن الأسد والغزال فماذا عن عشرات الآلاف من الحيوانات المختلفة الألوان التي تفضحها ألوانها منذ عشرات الآلاف من السنين، ولكن الطبيعة لم تجرؤ على مسّها بأذى، لا من قريب ولا من بعيد؟!

الزنبور، مكتشف السم:

إذا سألت الداروينيّة: من أين جاء الزنبور بالسم؟ أجابت:

- «إنّه في الزمن القديم الذي يحسب بملايين السنين كانت

---

(١) «نظرية التطور وأصل الإنسان» ص ٨٦-٨٧.

(٢) «نظرية التطور وأصل الإنسان» ص ١٣١.

الزنابير بلا حمّة سامّة، وإنّما كان لها إبرة تخترق بها الورق أو غير الورق عندما تريد أن تبيض، كما هو الشأن في أكثر الحشرات وفي أجزاء بعض الحيوان سموم مختلفة، فبراز الإنسان مثلاً، وبوله وبعض عصارات جسمه، فيها بعض السموم، فإذا اتفق أن ظهر زنبور بإبرة حادّة وشيء قليل جدّاً من السمّ فإنّه يبقى دون غيره من الزنابير التي تلتهمها الطيور لقمة سائغة. فهذا الزنبور يعيش وتنتشر سلالته وتقوى فيه خاصّة اللسع والسم، ويظهر له لون خاص يميّزه، فتحذره الطيور بينما هي تبيد كلّ الزنابير التي خلت من هذه الخاصّة»[1].

حقّاً إنّها حكاية طريفة تفتقر إلى البلاغة لتشكّل قصّة من قصص الخيال.

٥

كيف ظهر الجنسان؟
من أين جاء الجمال في الأنثى؟
كيف تطور النهد؟
من أين يأتي اللبن؟
من اخترع اللغة؟

تجيب الداروينيّة على السؤال الأول بأنّ «الحَيّ الناتج عن جنسين كان أكثر كفاءة وحريّة في التطوّر، لوجود عنصرين في جسمه، من الحي الناتج من فرد واحد حتّى النباتات على بطء تطوّرها قد ظهر فيها الجنس وأسرع في تطوّرها، والحيوان والنبات المجنسان قد

(١) المصدر نفسه ص ١٠٢.

تغلّبا على جميع الأحياء الأخرى التي تتكاثر بلا تلاقح بين الذكر والأنثى»[1].

ولا ندري فيما إذا كان علينا أن ننتظر ظهور أحياء يشترك في إنجابها عدّة كائنات، لأنّ وجود عدة عناصر في جسم الحي يجعله أكثر كفاءة وحريّة في التطوّر - حسب المنطق الداروني - من الحي الناتج من جنسين؟

ولا ندري أيضاً من أين عرفت النباتات، والأحياء الأولية - وهي إلى الآن لا تعقل ولا تشعر- أنّ وجود عنصرين في الحيّ يجعله أكثر كفاءة وقدرة على التطوّر؟

كما لا ندري من أين جاء الجنس المخالف، إذ لو فرضنا أنّ عشرين كائن أوّليّ كانت تعيش على ضفاف نهر، ولم يكن فيها بحكم طبيعتها الأولية جنس ذكر، وجنس آخر أنثى، فكيف ضغط أحدها على نفسه، وحوّلها إلى جنس مخالف؟ ثمّ كيف عمل على تغيير الكائن الآخر الذي حوّله بدوره إلى جنس مجانس ليحصل بعد ذلك التلاقح و«الحي الناتج من فردين، حتّى تكون قدرته على التطور أكثر من غيره» حسب تعبير سلامة موسى؟

* * *

وبالنسبة إلى السؤال الثاني: «من أين جاء الجمال في الأنثى»؟

فإنّ الداروني‍ّة ترى **أولاً** - «إنّ الجمال مختص بالإنسان، وليس في الحيوانات ما يمكن أن يسمّى جمالاً(!)» وتعتقد **ثانياً** - «إنّ سبب هذا الأمر يعود إلى أن الرجل رسم لنفسه صورة جميلة للمرأة، وهذه الصورة الجميلة التي رسمها الرجل لنفسه أثّرت بصورة

---

(١) المصدر نفسه ص ١٠٢.

ديناميكية، في جسم المرأة وأخذ وجه المرأة يدور ويتغيّر حسب الصورة الحلمية التي نحتت في ذهنية الرجل. وهكذا ظهر الجمال الأنثوي!

أمّا الجمال في الرجل، فقد نسيته الداروينيّة ـ لأنّ أبطالها كانوا رجالاً! ـ ولكنّنا نتمكن أن نعكس الموضوع السابق حتّى نعرف السرّ الأسطوري في ظهور الجمال على الرجل بأن نقول: إنّ المرأة أخذت ترسم، لفترة طويلة، صورة للرجل الجميل، وهذه الصورة المحفورة في ذهنها أخذت تعمل في وجه الرجل فعل الماكياج السحري وتغيّر منه وتبدّل حتّى أصبح الرجل كما نراه اليوم.

وتقول الداروينيّة في ذلك:

- «إنّ الرجل ينظر إلى المرأة بخلاف ما ينظر الذكر إلى الأنثى من الحيوان ولا مفرّ من أن نردّ هذا الفرق إلى الوضع الذي اتخذاه في التعارف الجنسي. هذا التعارف الذي يتمّ بيننا، نحن البشر وجهاً لوجه، وليس كما هي بين الحيوانات، وجهاً لظهر.

فالحيوان بهذا الوضع، يشتهي ظهر الأنثى وخلفها ويهمل الوجه، ونحن نشتهي وجه المرأة وصدرها. ومن هنا عنايتنا الكبرى بملامح الوجه وهي عناية لا يعقل أن تكون عند الحيوان. وقد أصبح الوجه البشري بذلك بؤرة التقدير الفنّي من الرجل ومن المرأة.

ومع هذا ما زلنا حيوانات، فإنّ شهوة اللحم عندنا تجد في كفلي المرأة ما يثير الانجذاب الجنسي، وهذا يرجع بالطبع إلى قبل ملايين السنين الماضية حين كان التعارف

الجنسي بيننا يجري على أسلوب الحيوانات، أي وجه الذكر إلى ظهر الأنثى. ولكن هذا الأسلوب قد تغيّر فالتفتنا إلى الوجه، وتغيّر الوجه بحيث صار وفق الصورة التي رسمها وجداننا عن الجمال البشري»[1].

وعن سؤال «كيف تطوّر النهد»؟ تجيب الداروينيّة بسذاجة متناهية:

- «في جلود الأسماك غدد تفرز نوعاً من الدهن أو الزيت ينتشر على سطحها فيجعلها ملساء زلقة، فيسهل عليها بذلك اجتياز المياه، وهذه الغدد تتركّز أحياناً في بعض المراكز وتنشئ أحياناً مجارٍ، وأحياناً أخرى تتفرّق في جلد السمكة».

وتضيف:

- «وأكثر الضفادع وبعض الأسماك تفرز مادة زيتية كريهة على جلودها حتّى لا يفترسها مفترس، وهذا هو السبب في أنّ الكلب أو القطّ أو الثعلب يكره الضفادع ولا يأكلها مع كثرتها أمامها.

على أنّ الحيوان اللبون (ذا الثدي) يمتاز على كلّ الحيوانات الأخرى بثلاثة أنواع من الغدد وهي غدد اللبن، وغدد العرق، وغدد الشعر الدهنية، والأثداء في الأصل غدد دهنية تركزت في موضع من الجسد وكان القصد منها في الأصل مجرّد إيجاد الدهن للشعر»[2].

---

(١) «نظرية التطور وأصل الإنسان» ص ١٩٠.

(٢) «نظرية التطوّر وأصل الإنسان» ص ١٣٦ـ١٣٨.

ولكن:

كيف يمكن الجمع بين الجملة التي تقول: «إنّ الحيوان اللبون يتمتّع بثلاثة أنواع من الغدد: اللبنية - والدهنية - والعرقية» وبين الجملة التي تقول: «إنّ الأثداء هي الغدد الدهنية التي تحوّلت إلى أثداء»؟ فإذا كانت الغدد اللبنية هي الغدد الدهنية فكيف توجد الغدد الدهنية مع الغدد اللبنية.

وتمضي الداروئيّة إلى القول بأنّ «عدد حلمات الأثداء والضروع تكون عادة مناسبةً لعدد ما يلده الحيوان في الدفعة الواحدة، ولذلك هي كثيرة في الفأر والخنزير، وقليلة في الإنسان والقرد، ويظهر في جنين الإنسان خمسة أزواج من الحلمات ثمّ تضمر وتزول ممّا يدلّ على أنّ الإنسان قضى حيناً من الزمن وهو مثل الخنزير والفأر يلد عدداً من الأولاد في الولادة الواحدة»[1].

أمّا عن انتقال الثدي من النصف الأخير من بطن المرأة إلى واجهة صدرها فتقول الداروئيّة: «إنّ المرأة قد أصبحت تحمل طفلها على صدرها وتمشي على ساقيها فقط، بل هي تعتمد حين تقعد على إليتيها أيضاً، فيحتاج الطفل في الرضاع إلى أن يجد الثديين على الصدر وليس على أسفل البطن»[2].

ويجب أن نهمس في أذن السادة الداروئيين أنّه لم يكتشف حتّى الآن دليل واحد يمكن الاعتماد عليه فيما يقولون فلم يوجد مثلاً في الحفريات امرأة واحدة تكون ثدياها أدنى من محلها الحالي، حتّى بمقدار سنتيمتر واحد.

---

(١) «نظرية التطور وأصل الإنسان» ص ١٣٩.

(٢) «نظرية التطور وأصل الإنسان» ص ١٩١ـ١٩٢.

ولا يخفى أنّ الداروتيّة تعتقد أنّ الغريزة الجنسية في طريقها إلى الزوال لأنّ القوى العقلية ستنتصر عليها والزواج سيكون، في العصور القادمة، زواجاً عقليّاً، أي أنّه يسمح به فقط للرجال والإناث الذين اكتملت عندهم القدرة الجسدية والعقلية، ليكون الإنجاب على ما يرام. أمّا غيرهم فسوف تختفي عندهم الرغبة الجنسية تماماً!

وأظنّ أنّ بوادر هذا التنبؤ العظيم قد ظهرت في موجات الإباحية الجنسية وحركات «الجنس العريان». وقوانين «الزواج الجماعي»!

* * *

وماذا عن اللغة؟

في اكتشاف «اللغة» ألّفت الداروتيّة ثلاث أساطير كلّ واحدة منها تناقض الأخرين بشكل واضح.

ولا بأس.! ما دام المقصود لم يكن إلاّ البرهنة على القدرة الأدبية، والخيال الطائر، والفن المجنح فما المانع من التناقض.

فأولاً ـ تقول:

♦ «.. وإلى التناسل، أو بالأحرى شهوة التناسل يعزى الصوت وما تلاه من اللغة في الإنسان، فإنّ غاية الصوت الأولى النداء للأنثى. وذكر أنّ الطيور لا تغني إلاّ رغبة في اجتذاب الأنثى إليها»[1].

وثانياً ـ تقول:

♦ «إنّ الإنسان حين ترك الإقامة على الشجر، وصار يجتمع

---

(١) «نظرية التطوّر وأصل الإنسان» ص ٨٤.

مع أقرانه للصيد، صار يتفاهم مع هؤلاء الأقران بالإشارة **أولاً. وباللغة ثانياً**»[1].

وثالثاً - تقول:

- «كانت النار عاملاً قوياً في تنشئة اللغات وإيجاد الكلمات، لأنّها كانت تجمع النساء حولها فيأخذن في القيل والقال كما هو شأنهنّ الآن (!) وكانت النار أيضاً تجعل السهر في الليل ممكناً وعندئذٍ لا يمكن التفاهم بالإشارات فيصبح اختراع الكلمات ضرورة لازمة»[2].

ولا بدّ أن الدارونيّة تترك المجال مفتوحاً أمام أيّ كاتب أو أديب لكي «يكتشف» سبباً آخر لكيفية «اختراع وتطوّر اللغة» بشرط أن يستطيع دمج «فلسفته» في ذلك في أسطورة أدبيّة أو مقطوعة شعرية، أو مسرحيّة رائعة!

وفي ذلك، فليتنافس المتنافسون!

٦

كيف سيكون الإنسان القادم؟

ترى الداروينيّة، أنّ «الإنسان» في المستقبل سوف يكون بالشكل التالي:

١ - «دماغ كبير يترجح تجويفه بين ١٨٠٠ - ٢٠٠٠ سنتيمتر مكعب وهو الآن في المتوسط نحو ١٤٥٠ سم^3»[3].

---

(١) «نظرية التطور وأصل الإنسان» ص ٢١٢.

(٢) «نظرية التطور وأصل الإنسان» ص ٢١١.

(٣) «نظرية التطوّر وأصل الإنسان» ص ٢٥١.

وإذا سألت الداروينيّة: وهل باستطاعة الإنسان أن يكبّر دماغه بنفسه؟

لأجابت: «كما أنّ الزرافة استطاعت أن تزيد طول عنقها إلى نحو مترين كي تصل إلى الأغصان الطريّة العالية أو إلى الأعشاب الأرضية البعيدة، فإنّنا كذلك نستطيع أن نزيد الدماغ البشريّ الذي هو آلة التفكير حجماً ومساحةً، فنزيد قدرتنا على التفكير المنطقي، ويزيد وجداننا ووعينا ودرايتنا بالعالم والكون وبأنفسنا أيضاً[1]».

أمّا كيف سنكبّر دماغنا؟

فتقول الداروينيّة: «اللغة والانتخاب الصناعي، هما اللذان يقومان بالمهمّة، فإنّ كلمات اللغة والتوسّع اللغوي في المعاني الجديدة، ثمّ هذه الآفات التي زادت من اهتمامات الإنسان، كلّ هذا جدير بأن يزيد خلايا الدماغ في المستقبل، ويزيد بذلك فهمنا وتسلطنا على العواطف الحيوانية[2]».

ومن ناحية أخرى فإنّ «زيادة الدماغ تعني زيادة الذكاء، وأكبر ما يعمل لزيادة الذكاء وتكبير الدماغ هو زيادة المعارف البشريّة التي ستطلب زيادة في خلايا الدماغ[3]».

٢ ـ ضخامة الإليتين عند المرأة: «لأنّ الدماغ سيكبر في حجمه، وسيحتاج الجنين إلى حوض واسع عند المرأة حتّى تسهل ولادته، واتساع الحوض يعني في النهاية تضخّم الإليتين[4]».

---

(١) «نظرية التطوّر وأصل الإنسان» ص ٤١.
(٢) «نظرية التطوّر وأصل الإنسان» ص ٢٧.
(٣) «نظرية التطور وأصل الإنسان» ص ٢٥١ـ٢٥٢.
(٤) «نظرية التطوّر وأصل الإنسان» ص ١٩٢.

٣ ـ رجل ثالثة للإنسان، يستعملها كعكازة عند الشيخوخة. ذلك «لأنّنا لسنا سعداء بهذا الوضع العمودي، فإنّنا ما زلنا نتعب، في الطفولة نحبو أولاً، ثم نتعلّم الانتصاب، وأيضاً في الشيخوخة نعود إلى الانحناء والساقان هما العضوان الأساسيان في انهيارنا مدّة الشيخوخة، ولذلك فنحن نحتاج إلى ساق ثالثة هي العكازة التي نعتمد عليها»[1].

والدارونيّة لا تكشف عن المكان الذي ستطلع منه الساق الثالثة، بل تترك لنا الحريّة الكاملة، لاختيار المكان الأنسب!

٤ ـ إنّ السلالات البشرية تتحوّل إلى أنواع، فالإنسان الأوروبي سيكون نوعاً خاصّاً، والإنسان الإفريقي نوعاً خاصّاً، وهكذا. «وعلاقة النوع التي تميّزه أنّه لا يتلاقح من نوع آخر[2]».

وانطلاقاً من هذه «الحقيقة المروّعة» فإنّنا ننصح الذين يرغبون في الزواج من الفتيات الأوروبيات أن يسارعوا إلى ذلك قبل أن يتبدلن إلى «أنواع» أخرى، بحيث لا يمكن التلاقح بهن.

٥ ـ زوال أصابع القدمين باشتباكها واكتسائها باللحم «لأنّه لم تعد لنا أيّة منفعة منها، وهذا بالطبع بعد زوال الأظافر الذي ابتدأ منذ الآن[3]».

٦ ـ زوال الحاسات الثلاث: «الشم، واللمس، والسمع»، لأنّ هذه الحواس الثلاث تخدم الغريزة أكثر ممّا تخدم العقل، ولذلك فهي صائرة إلى الزوال، لأنّ الإنسان سيكون جلّ اعتماده في

---

(١) «نظرية التطور وأصل الإنسان» ص ١٨٦.
(٢) «نظرية التطور وأصل الإنسان» ص ٦٧.
(٣) «نظرية التطوّر وأصل الإنسان» ص ٢٥٢.

المستقبل على النظر، إلاّ إذا ارتقت فيه الحاسة الموسيقية فارتقى لذلك سمعه على نحو ما حدث بين الطيور[1]».

٧ - ضمور فاحش في البطن. وربما - كما تقول الداروِنيّة - «تزول المعدة والقولون، ويبقى المعى الصغير للهضم، لأنّنا لا نحتاج إلى خزن الطعام أو نفايته، وكذلك سنقنع من الطعام بالحجم الصغير والغذاء المركّز[2]».

٨ - «صغر الفكّين وزوال ضرس العقل، واندغام بعض الأسنان الأمامية مع صغر حجمها لأنّنا لا نحتاج إلاّ إلى أقلّ المضغ»[3].

٩ - زوال الشعر من الرأس والوجه، عند الرجل والمرأة معاً، «فيصبح وجه الرجل أملط كوجه المرأة، وكذلك جسمه، وسيخلو رأس المرأة من الشعر[4]».

.. وعند ذاك سترتفع قيمة الباروكا والبستيج، طبعاً!

١٠ - «ستقصر القامة الإنسانية، بشكل ملفت، وتزداد فقرات العنق والظهر متانة، وكذلك عظام الصدر، والكتفين لكي تحمل الرأس الكبير[5]».

أمّا لماذا تقصر القامة؟ فلم تقدم الداروِنيّة أية مبرّرات لذلك، ومن الممكن أن يكون الأمر مرتبطاً بكبر الرأس..

١١ - «ربما يكون التفاهم بين الأشخاص بلغة تليبائية غير منطوقة في الأكثر، إلى جنب اللغة المنطوقة في الأقل»[6].

---

(١) «نظرية التطوّر وأصل الإنسان» ص ٢٥٠.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٣.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٥٣.
(٤) المصدر نفسه ص ٢٥٣.
(٥) المصدر نفسه ص ٢٥٣.
(٦) المصدر نفسه ص ٢٥٣.

هذه هي «الملامح الرئيسية» للصورة «المقترحة للإنسان القادم كما وضعتها الدارونيّة قبل سنوات، ولكن يبدو أنّ هذه «الصيغة المقترحة» لا تلائم التقدم التكنوقراطي الذي أحرزه الإنسان في السنوات الأخيرة فلا بدّ من إضافة «الملامح» التالية عليها:

أ ـ ستنبت على طرفي الإنسان أجنحة قوية، إلى جانب يديه، لأنّ حاجة الإنسان أصبحت كبيرة إلى الطيران بعد أن ازدحمت المدن إلى درجة يتعرقل فيها مرور السيارات والمراكب البخارية بصورة شبه دائمة.

ب ـ سينقطع الإنسان عن التنفس، خاصّة أولاد رواد الفضاء الذين تتعرّض حياتهم لأخطار جديّة نتيجة انعدام الأوكسيجين في الفضاء الخارجي.

ج- سينبت في واجهة صدر كلّ إنسان آلة طبيعية للتصوير الفوتوغرافي، نظراً إلى حاجته الشديدة إلى ذلك.

د- ستحدث في كلّ من خاصرة وظهر الرجال فتحة لإطلاق الرصاص على الأعداء على الأخص للذين يعيشون في مناطق خطرة مثل الغابات، من الذين يعانون من صعوبة الحصول على الرشاشات والمدافع وما شابه ذلك.

هـ ـ سيطلع وجه كامل ويدان أخريان من ظهر عمال العالم، ليساعدهم على إدارة وتشغيل معملين في وقت واحد.

و ـ تزول القدمان، وتنبت مكانهما عجلتان طبيعيتان يسير عليهما الإنسان بصورة أسرع، وكلفة أقل، خاصّة عندما يتمّ تعبيد جميع الطرق في المدن.

ز - يهاجر الشعب الأميركي برمّته إلى ربوع القمر، وذلك بعد أن يتحوّل إلى نوع جديد من الكائنات مختلف عن بقية الناس، ويصعب عليه العيش بين بني الإنسان. كما يهاجر الشعب الروسي إلى المريخ أو الزهرة، بعد «إصابته» بنفس «المرض».. ويتحوّل قسم من الإفريقيين إلى «مدافع» و«طائرات مقاتلة» لخوض حروب طويلة الأمد ضدّ الحكومات العنصرية..!

* * *

ومن الطبيعي أنّ هذه الصيغة ليست الصيغة النهائية للإنسان القادم، فلكافة الفئات والهيئات أن تضيف عليها الملامح التي تناسبها، أما مكان «التسجيل» فسيكون لدى «مكاتب» الماديات المعاصرة، في «أسواق» الداروبنيّة..

* * *

٧

-وماذا عند الداروبنيّة، من أساطير عن الموت؟

-... بعيداً عن سمع الآباء، تصرح الداروبنيّة بـ: «إنّ الموت إنّما فرض على بني الإنسان لأنّ الأبناء هم الذين يرغبون في ذلك، فتقول:

- «إنّ التناسل ضرب من النمو يقصد به تخليد النوع، فما دام النوع قد ضمن بقاءه بظهور النسل لم يعد من المهم بقاء الأبوين أو أحدهما إلاّ حيث تقتضي العناية بالنسل وجودهما. بل ربّما يكون موت الأبوين ضرورة يقتضيها

بقاء النوع، لأنّه ليس من مصلحة النسل الجديد أن يزاحمه على الغذاء الجيل السابق، لأنّه يقتله عندئذٍ ويحرمه غذاءه في حين أنّ ظهور النسل الجديد وبقاءه أنفع للنوع من بقاء الجيل السابق وأقبل للتطوّر منه، فمن مصلحته ألاّ يجد ما يزاحمه على البقاء وهو بعد في الطفولة.

وهذا هو معنى الموت وفائدته الكبرى لجميع الأحياء العليا «فالموت عامل من عوامل الحياة، والأحياء الدنيا لا تعرف الموت للآن، فالأميبة والنقاعيات خالدة، ولكنّنا نحن نموت لأنّنا أرقى منها، فإنّ نظرية التطوّر تقول بأنّ الجيل الجديد أعلى من الجيل السابق، فأولادنا أفضل منّا، فليس من مصلحتهم أن نعيش معهم ونزاحمهم على العيش، بل المصلحة أن نخلي لهم الميدان[1]».

وعليه فإنّ مصير الآباء مرتبط بشكل عضوي بحصولهم على إجازة من الأبناء، ومتى ما تمكّنت الحضارة من رفع التنازع على العيش ممّا أدّى إلى توقيع الأبناء هذه على الإجازة، فإنّ الآباء سينجون من الموت حتماً..!

* * *

لقد صدق «ويستمان» حينما قال:

- «ليست الأصول الأولية التي بنيت عليها الداروِنيّة، إلاّ خيالات واهية لا تتجاوز في قيمتها العلمية، قيمة الخرافات الجميلة التي تسلي بها الأمهات أطفالهن!».

---

(١) «نظرية التطوّر وأصل الإنسان» ص ٨٣.

القِسمُ الثَّاني



بين
الإسلام، والماديّة - الدارونيّة

ما هي العلاقة بين الإسلام، والنظريّة الدارونيّة؟

هل يعترف بها، بصورة كليّة؟ أم يرفضها بصورة كليّة؟ أم ماذا؟

قبل الإجابة على ذلك، لا بدّ من معرفة موقف المسيحية من الدارونيّة، هذا الموقف الذي يختلف في أوجه عديدة عن موقف الإسلام، وقد وقع لبعض الكُتّاب التباس شديد في ذلك، حيث اعتبر موقف المسيحية موقفاً للدين بصورة عامّة وأصدر أحكاماً كيفية، بالنظر إليه، على الإسلام.

في المعتقدات المسيحية، تصريحات قاطعة بأنّ كافّة الكائنات سواءً النباتية أو الحيوانية إنّما خلقت بصورة مستقلة، بلا تطوّر أو أصل أولي. فالنخل خلق نخلاً من العدم، والغزال خلق غزالاً من اللاشيء، ولذلك فقد جاءت نظرية «انبثاق الحياة من أسفل إلى أعلى مخالفة في الصميم لهذه المعتقدات، ممّا فتح معركة بين الدارونيّة والكنيسة، حيث اكتشفت هذه الأخيرة فيها خطراً جديّاً على «دين اللّه» و«زندقة صريحة عن تعاليم الكتاب المقدّس». وانتهت المعركة بتكفير دارون، والحكم على أتباعه بالمروق والإلحاد.

ولكن ما هو موقف الإسلام؟

١ ـ من الطبيعي أن يكون للإسلام، باعتباره بصائر وهدى كاملة، رأيه الخاص في الحياة، والكون، والإنسان، ولا يمكن أن يأتي هذا الرأي مخالفاً لوجهة نظر العلم الحديث، إذا ثبتت مائة بالمائة، كما أنّه لا يمكن أن يتغيّر رأي الإسلام عن موقفه إزاء نظرية تطرح هنا، أو رأي يطلع من هناك مهما نصبت لتلك النظريات وهذا الرأي من أبواق للدعاية، والتهريج.

ويتلخّص رأي الإسلام في المسائل الثلاث الآنفة الذكر بما يلي:

أ ـ إنّ الحياة، ليست وليدة صدفة عمياء، وإنّما خلقها اللّٰه تعالى بإرادة خاصة منه. يقول القرآن الكريم: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1].

ب ـ إنّ الكون مخلوق من مخلوقات اللّٰه، ويسير وفق نواميسه وقوانينه. يقول القرآن الكريم: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾[2] ويقول: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[3].

ج ـ إنّ الإنسان أيضاً مخلوق، أراد اللّٰه له أن يكون فكان. يقول تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[4].

د ـ إنّ مصير الإنسان ليس إلى الفناء والعدم، بل إلى الحياة والبقاء، يقول تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ

---

(١) سورة الملك، ٢.

(٢) سورة ابراهيم ٣٢.

(٣) سورة الفرقان ٣.

(٤) سورة الرحمن ١ ـ ٤.

عَبۡدًا﴾[1]. ويقول: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[2].

على ضوء هذا الاعتقاد الإسلامي المستقر، يجب أن تناقش علاقته مع أي مبدأ، أو دين، أو نظرية. وموقف تلك النظرية أو الدين أو المبدأ هو الذي يحدّد موقف الإسلام منه.

٢ ـ عندما نراجع الداروِنيّة لنكتشف موقفها من المبادئ الثلاثة نشاهد أنّ موقفها لا يتناقض، من حيث المبدأ، مع موقف الإسلام. فيعترف دارون بصراحة تامّة:

- «إنّ الاستدلال بمذهب التطوّر على إنكار الإله الخالق خطأ كبير، وادعاء لا سند له من العلم ولا من التفكير الأمين»[3].

ويعترف أيضاً:

- «يستحيل على العقل الرشيد أن تمرَّ به خلجة من الشكّ في أنّ هذا العالم الفسيح بما فيه من الآيات البالغة، وتلك الأنفس الناطقة المفكّرة قد صدر عن مصادفة عمياء، لأنّ العماء لا يخلق نظاماً ولا يبدع حكمة. ذلك أكبر برهان يقوم عندي على وجود اللّٰه»[4].

فدارون نفسه، يؤمن باللّٰه، وليس في المصادر الأولية للداروِنية

---

(١) سورة مريم ٩٣.
(٢) سورة القصص ٨٨.
(٣) «الإسلام ونظرية دارون» تأليف محمد أحمد باشميل ص ٩٩.
(٤) «أصل الأنواع» تأليف تشارلس دارون، تعريب إسماعيل مظهر ص ١٢ـ١٣. يقول جورج حنّا: «إنّ النظرية الداروِنيّة لا تنفي وجود الخالق، كما أنّها لا تتعرّض لإثبات وجوده، ما تنكره هذه النظرية كون الإنسان خلق إنساناً على الشكل الذي هو عليه الآن» قصّة الإنسان ص ٩.

ما يتناقض مع الإيمان بالله[1]. بل إنّ الداروينيّة تبدو أسطورة دراماتيكية إذا جرّدناها من الإيمان بالله، إذ كيف يمكن أن تفسّر لنا سرّ نشوء الحياة على وجه الأرض[2].

وسرّ تشبث الأحياء بالحياة؟ وسرّ قدرة الأحياء على التطوّر لمواجهة ما يحيط بها من ظروف لكي تحقّق ما في طبيعتها من حبّ للبقاء؟ وسرّ الطفرات التي تخلق نوعاً جديداً من نوع قديم؟..

ولكن التطفل الذي طرأ على الداروينيّة أخرجها من النطاق البيولوجي المحض، وجعلها أساساً للفلسفة المادية، التي اعتمدت على «التولّد الذاتي» باعتباره تفسيراً لنشوء الكون والأحياء.

وقد جاء وضع نظرية «التولّد الذاتي» على لسان «أرنست هيكل» هكذا: «إنّ أصل الحياة نشأ من توازن نسبي بين مقادير خاصّة من العناصر الماديّة، ومن هذه العناصر الماديّة ظهر كلّ ما في الكون من أحياء وجمادات. وإنّ حركة العالم هي حركة تطوّر دائم يبتدئ من أبسط الذرات وينتهي إلى أرقى الكائنات، فالكائنات كلّها تتألّف من عناصر واحدة، لا فرق في ذلك بين كائنات حيّة أو كائنات ميتة، لأنّ عناصر المواد العضوية ـ حسب هذه النظرية ـ موجودة بذاتها في المواد العضوية، فليس مستحيلاً ـ إذن، ـ تحضير بعض مركبات عضوية بطريقة صناعية».

---

(١) «قصة الإيمان»، تأليف الشيخ نديم الجسر ص ١٨٨. هذا وقد يقال بأنّ دارون كفر في أواخر أيام حياته بالله ـ كما تقول زوجته ـ ولكن الذي يهمنا ليس هو دارون ولكن نظريته لا تدل على عدم وجود الله، إن لم تدل على وجوده.

(٢) يقول البروفسور A'mahhis: «إنّ الاستدلال بقانون الانتخاب الطبيعي يفسّر عملية البقاء للأصلح، ولكنّه لا يستطيع أن يفسر حدوث هذا الأصلح»: راجع: Revolt against Reason. A Lunn R 133.

وكما قال هيكل: «إيتوني بالهواء، وبالماء، وبالأجزاء الكيماوية وبالوقت، وسأخلق الإنسان».

ولكنّ أصحاب هذه النظرية، يعجزون عن تقديم تفسير معقول لنشوء الحياة من الجماد، ويقول أحدهم:

- «إنّ البتّ في أمر التولد الذاتي للكرية الأولى التي نشأ عنها الأصل الأوّل أمر غير متيسر، لأنّ الأحوال المناسبة لتولّد الكريات الأولى، تولداً ذاتياً غير معروفة، والكريّة ذاتها على بساطتها ذات بناء وتركيب يمتنع معه صدورها من الجماد مباشرة، بل إنّ ظهورها من الجماد ليعد، في نظر العلم، معجزة ليست أقل بعداً عن العقل من ظهور الأحياء العليا من الجماد رأساً»[1].

أمّا الكلام الذي «تفضّل به» هيكل عن خلق الإنسان، فقد تلقاه العلم كأسخف ما يمكن أن ينطق به أحد، يقول الأستاذ «كريسي موريسن» - الرئيس السابق لأكاديمية العلوم الأميركية بنيويورك-:

- «إنّ هيكل يتجاهل في دعواه: الجينات الوراثية ومسألة الحياة نفسها، فإنّ أوّل شيء سيحتاج إليه، عند خلق الإنسان، هو الذرّات التي لا سبيل إلى مشاهدتها، ثمّ سيخلق الجينات، أو جملة الاستعدادات الوراثية، بعد ترتيب هذه الذرات، حتّى يعطيها ثوب الحياة. ولكن إمكان الخلق في هذه المحاولة، بعد كلّ هذا، لا يعدو واحداً على عدد بلايين ولو افترضنا أنّ هيكل نجح في محاولته فإنّه لن يسمّيها «صدفة» بل سوف يقرّرها ويعدّها نتيجة لعبقريته»[2].

---

(١) «قصّة الإيمان» ص ١٨٩.

(٢) Man does not Stand alone P 87.

إنّ الذي يجب إزالته من مفكرة الداروئيّة المعاصرة، في الدرجة الأولى، هو الاعتقاد بالتولد الذاتي، وصدفية الحياة، هذا الاعتقاد الذي تقوم كافة الأدلّة والشواهد على سخافته، حيث يصرّح العلم البيولوجي الحديث:

- «إنّ الإمكان الرياضي في توافر العِلل اللازمة للخلق - عن طريق الصدفة - في نسبها الصحيحة هو ما يقرب من لا شيء»[1].

إنّ كلّ خلية من خلايا جسم الإنسان التي تزيد على (٦٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) خلية قد عُدّ ترتيبها ووضعها في مكانها المحدّد حسب حاجة ملحّة إلى ذلك، ووفق حسابات رياضية دقيقة، وتفسير الصدفة أعجز من أن يعطينا تفسيراً معقولاً لذلك.

إنّ حكاية أنّ التطوّر حدث بالحوافز الحياتية وحدها وبدون يد هادية لم تعد مقنعة، وقد سقطت من غربال الفكر العلمي، منذ أمدٍ طويل.

فلماذا يخرج من عائلة الحمار شيء كالحصان مع أنّ الحمار أكثر جلداً واحتمالاً؟. وبأيّ حوافز يتطوّر من عائلة الوعل شيء كالغزال وهو أرهف وأضعف وأقلّ جلداً من الوعل؟

وأيضاً الفراش الملوّن الرقيق أبطأ وأضعف وأقلّ قدرة من الزنبور الطنّان الغليظ الشكل.. والحمام واليمام والطواويس والعصافير الملوّنة أكثر رهافة وتهافتاً من الصقور والحدادي والنسور..

---

(١) The Evidence of Cod p 117.

ونشوء هذه الأنواع لا يمكن تفسيره بقانون بقاء الأصلح، وإنّما بقانون بقاء الأجمل. إنّ الجناح المنقوش ليس أصلح للطيران من الجناح السادة. فلا توجد مصلحة حياتية هنا، وإنّما هنا قيمة جماليّة عليا تفرض نفسها على جميع الحوافز، هنا عقل الفنّان المبدع الذي يجمل مخلوقاته ونلمس آثاره في كلّ مكان بلا استثناء.

كما نقف مذهولين أمام بعض الأشجار الصحراوية إذ نجد أنّ بذورها مجنحة، لتطير محلّقة تقطع أميال الصحاري الجرد لتجد فرصها القليلة في الماء، أو تتأمّل بيض البعوض فتكتشف أنّه يملك أكياساً هوائية للطفو ليعوم في الماء ولا يغرق.. كلّ هذا لا يفسره إلاّ وجود عقل كلّي يفكّر ويهندس لمخلوقاته، فلا أشجار الصحراء تعقل لتزوّد بذورها بأجنحة، ولا البعوض يعرف قوانين أرشميدس في الطفو ليزوّد بيضه بوسيلة العوم، هذه الأمور تعجز أمامها نظرية التوالد الذاتي، ولا يفسّرها إلّا عقل كلّي شامل يهندس الوجود، ويصمّم أموره تصميماً وينشئه إنشاءً[١].

إنّ السؤال الذي يتوقف عنده أصحاب نظرية «التوالد الذاتي» محتارين هو: من أين جاءت الحياة؟

وأي تفسير يتجاهل وجود اللّٰه، لا بدّ أن يكون مخالفاً للمنطق والعلم والوجدان.

لأنّ القول بأنّ الحياة وجدت نتيجة «حادث اتفاقي» - كما يروق لهؤلاء التمسّك به - شبيه في مغزاه بأن نتوقع إعداد معجم ضخم، نتيجة انفجار صدفي يقع في مطبعة - كما يقول البرفسور إيدوين كنوكلين -[٢]

(١) «القرآن محاولة لفهم عصري» ٤٦ـ٤٧.

(٢) The Evidence of God P. 174-2.

إنّ الأجسام الحيّة تتركّب من خلايا حيّة، والخلية الحيّة عبارة عن مركب صغير جدّاً، ومعقّد غاية التعقيد، وهي تُدرس تحت علم خاص يسمّى علم الخلايا Cytology.

والجزء الرئيسي هو البروتين، الذي يعتبر من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحيّة، وهو مركب كيماوي من خمسة عناصر هي: الكربون، والهيدروجين، والنتروجين، والأوكسجين، والكبريت.ويحمل الجزيء البروتيني الواحد ٤٠,٠٠٠ من ذرات هذه العناصر، وفي الكون أكثر من مائة عنصر كيماوي، كلّها منتشرة في أرجائه، فأيّة نسبة في تركيب هذه العناصر يمكن أن تكون في صالح قانون الصدفة؟

«لقد حاول رياضي سويسري شهير هو الأستاذ «تشارلس يوجين جواي» أن يستخرج المدة التي يحتاجها حدوث الجزء البروتيني عن طريق الرياضة، فانتهى في أبحاثه إلى أن الإمكان المحض في وقوع الحادث الاتفاقي، الذي من الممكن أن يؤدّي إلى تكوين جزيء بروتيني واحد هو: الرقم واحد على ١٠/ ١٦٠، أي ١٠ x ١٠ مائة وستين مرة. وبعبارة أخرى: نضيف مائة وستين صفراً إلى جانب عشرة. وهو عدد هائل لا يمكن النطق به»[١].

ثمّ إنّ إمكان حدوث الجزيء البروتيني عن طريق الصدفة يتطلّب مادة يزيد مقدارها بليون مرّة عن المادّة الموجودة الآن في الكون، حتّى يمكن تحريكها وضخها، وأمّا المدّة التي يمكن فيها ظهور نتيجة ناجحة لهذه العملية فهي أكثر من ٢٤٣/ ١٠ سنة. أي: مائتان وثلاثة وأربعون صفراً أمام عشر سنين!!

(١) الله يتجلّى في عصر العلم ص ٥.

وجزيء البروتين يتكوّن من سلاسل طويلة من حوامض الأمينو Amino – Acids – وأخطر ما في هذه العملية هو الطريقة التي تختلط بها هذه السلاسل، بعضها مع بعض، فإنّها لو اجتمعت في صورة غير صحيحة لأصبحت سمّاً قاتلاً، بدل أن تصبح موجدة للحياة.

والغريب أنّ هذا الجزيء البروتيني ذو وجود كيماوي لا يتمتّع بالحياة إلاّ عندما يصبح جزءاً من الخلية، فهنا تبدأ الحياة، وهذا الواقع يطرح أهمّ سؤال في بحثنا وهو:

«من أين تأتي الحرارة عندما يندمج الجزيء بالخليّة؟.

ولا جواب عن هذه السؤال في أسفار الملحدين»[١].

إنّ فصائل الحيوان التي اكتشفها الإنسان حتّى الآن تربو على مليون نوع، كما تتجاوز فصائل النباتات المعروفة على ٥٠٠,٠٠٠ نوع من النبات ولا ندري كيف يسمح أصحاب النظرية الداروتيّة لأنفسهم الاعتقاد بأنّ كلّ هذه الكمية الكبيرة إنّما جاءت عن طريق التطوّر الصدفي المحض، هذا التطوّر الذي حسبه الرياضي. باتو. Patau، فوجد أنّ اكتمال «تغيرّ جديد» في جنس ما قد يستغرق أكثر من مليارين من الأجيال[٢].

مع العلم أنّ الحياة لم توجد في أيّة صورة من الصور إلاّ قبل بليون سنة عندما بردت الأرض[٣].

ولو تغافلنا عن كلّ هذه القناعات العلمية، والأدلّة المنطقية وانبطحنا على الاعتقاد بالتوالد الذاتي، المبني على الخرافات

---

(١) «الإسلام يتحدّى» تأليف وحيد الدين خان ص ١٠٩.

(٢) The Evidence of Cod P 117.

(٣) Human Desting PP 30_36.

والأساطير والصدف، معتقدين أنّ الطبيعة هي التي خلقت البروتين الأول، وقامت بتطويره وفق نظام دقيق، لم يكتشف الإنسان عبر عمره الطويل الممتد إلاّ جزءاً ضئيلاً منه، ثمّ طوّرته، وطوّرته، وطوّرته إلى أن صنعت منه الكائن الأعلى، وهو الإنسان، وأنّها لن ترضى بالإنسان، الذي وصل إلى القمر ككائن نهائي، بل ستستمر في عملياتها التطورية لتخلق منه كائناً أسطورياً، في القدرة والذكاء، إذا اعتقدنا ذلك، فإنّ أوّل ما يلزمنا به المنهج العلمي هو أن نعتقد أنّ هذه «الطبيعة» المعجزية، تتمتّع بكلّ أوصاف «الخالق» وأنّ عدم الإيمان «بمصير ما» تخبئه للإنسان الذي تنقّل به منذ ملايين الملايين من السنين في رحلة شاقّة طويلة، يعتبر خرقاً لأبسط قواعد المنطق، والعقل الإنسانيين.

وإذا فعلنا ذلك: فإنّنا نكون قد خلعنا على هذه الطبيعة صفات الخالق، وأصبحنا نعتقد فيها أنّها الربّ العظيم، ولكن سيكون ربّنا هذا: عالماً وجاهلاً. مطيعاً ومطاعاً، مطوِّراً ومطوَّراً، حاكماً ومحكوماً.

وهكذا يكون أصحاب نظرية التطوّر الذاتي قد اضطروا إلى الإيمان بالإله، ولكن إلهاً يجمع المتناقض من الصفات فهو غيبي، ومادي، وعالم وجاهل، بدل أن يؤمنوا بالله الحكيم العليم الكريم الرحيم الودود القادر.

٣ ـ وإذا جرّدنا النظرية الداروينيّة من خرافة «التوالد الذاتي» فهل يقبلها الإسلام بصورة عامّة، أم يبدي تحفظات إزاءها؟ أم ماذا؟

والجواب ـ أنّ النظرية الداروينيّة لم تتعدَّ بعد منطقة «النظرية» وأحكامها لا تزال مبنية على «الفرض» و«الاحتمال» فلم تصادق

عليه الأدلّة العلمية الكافية حتّى الآن، إن لم تكن قد تصادقت على خلافه، وعلى ضوء ذلك فلا يمكن أن تكون محكّاً للحكم عليها من قِبل الدين، ومهمة البحث عن مدى تطابق الداروينيّة مع الواقع متروكة للعلوم الطبيعية.

وهي كنظرية لا تزال تناقش من قِبل العلماء، وقد أجريت عليها عدّة تعديلات جوهريّة حتّى الآن، ممّا جعل النظرية كما وصفها دارون مرفوضة بشكل شبه تام من قِبل علماء العصر.

تقول الموسوعة العربية الميسّرة:

- «..ولقيت الداروينيّة التي تسمّى بمذهب الانتخاب الطبيعي من علماء القرن الحاضر بعض النقد، لعدم تفرقتها بين التغيير المكتسب الذي لا يورث، والصفات الجينية التي تورث، ولذلك أدخلت عليها تحويرات اقتضتها المعرفة الحديثة بأصول الوراثة..»[1].

ولكن لو ثبتت صحتها من أَلِفها إلى يائها، فهي صيغة مستقرّة، بعيداً عن «التحويرات التي تقتضيها المعرفة الحديثة» فلن تكون بأيّ وجه من الوجوه مناقضة للمعتقدات، ما دامت تقتصر على النشوء والارتقاء في إطار البيولوجيا، بل وستكون دليلاً مقنعاً على وجود قدرة حكيمة تفرض نفسها على الكون وتسيّره كيفما تريد.

إذ كيف يمكن الإيمان بأنّ الصدفة هي التي وضعت نظام التطوّر الدقيق، في الوقت الذي لا تخضع الصدفة ذاتها لأيّ قانون أو نظام؟ وكيف يمكن لفاقد الشيء أن يعطيه؟

---

(١) «الموسوعة العربية الميسّرة» مادة: داروينية.

إنّ الذي يرفضه الإسلام بصورة قاطعة هو أن تكون نشأة الكون عن طريق الصدفة، وليس عن طريق اللّٰه.

فالمبدأ ـ حسب رأي الإسلام ـ هو أنّ اللّٰه خالق الكون وهذا ما تؤكّده الأدلّة العلمية، والمنطقية على حدّ سواء، ولا يفرّق حينئذٍ بين أن يكون اللّٰه قد خلق الأنواع بصورة مستقلّة، أو أن يكون قد أوجد مادّة واحدة صالحة للتنوّع والتطوّر، بموجب نواميسه الخاصّة التي فرضها عليها. فاللّٰه هو خالق الإنسان، والفيل، والطير، ولا فرق بين أن يكون جدّ الإنسان إنساناً، أم قرداً من قرود إفريقيا، كما لا فرق بين أن يكون جد الفيل فيلاً أم زاحفاً من الزواحف. كما لا فرق بين أن يكون الطير الأوّل طيراً أم حشرة من الحشرات.

الخلق المستقل، أو الخلق عبر التطوّر، كلاهما يدلّ دلالة قاطعة على قدرة «الخالق» لأنّ الذي يصنع شيئاً بسيطاً واحداً، ثمّ يحوّله إلى أنواع لا تُعدّ ولا تُحصى، ليس «أقل قدرة» من الذي يصنع هذه الأنواع مرّة واحدة.

وهكذا فإنّ نسبة التطوّر إلى الطبيعة العمياء، هي التي يرفضها الإسلام، أمّا نفس التطوّر، فلا يمكن أن يشكّل أمراً مناقضاً للإسلام والمعتقدات الإلهية، بأيّة صورة من الصور.

ويجب الاعتراف بأنّ ظاهر النصوص ربّما لا تفيد بأنّ خلق الإنسان كان خلقاً تطورياً تدرج من المادّة الأولى إلى أن وصل إلى الإنسان، بل كان خلقاً مستقلاً تماماً، والأدلّة التي أقيمت للداروينية لا تشكّل حتّى كتابة هذه السطور دليلاً علميّاً واحداً على خلاف ذلك. وعليه فإنّ المنطق العلمي يلزمنا بالاستمرار على الإيمان بالخلق المستقل حتّى يأتينا الدليل المقنع.

صحيح أنّ النظرية الدارونيّة استطاعت أن تكتشف الوشيجة المتينة التي تربط الأحياء بعضها ببعض، ولكن: متى كانت وشيجة التشابه والترابط دليلاً علمياً على أنّ المشابهات تنحدر من أصل واحد؟

أليس من المعقول أن تكون هذه الوشيجة دليلاً على «وحدة الخالق» بدل أن تكون دليلاً على «وحدة الخلق»؟

إنّ التشابه الموجود بين الدراجات البسيطة، والسيارة والقاطرة، لا تدلّ على أنّ الدراجة هي الأصل الأول للقاطرة، ولكنها يمكن أن تدلّ على أنّها من إنتاج نفس الشخص الذي ينتج السيارة والقاطرة.

٤ ـ إنّ النظريّة الدارونيّة، لا تزال «وجهة نظر»، ولو تحوّلت في يوم ما إلى حقيقة علمية، فلا يعني ذلك أنّ ننظر إلى الإنسان بالاعتماد عليها، ككائن حيواني تربطه بالحيوان نفسياته، وأحساسيه، ومشاعره كما يربطه به لحمه ودمه.

بل لا بدّ من اعتباره كائناً مستقلاً يختلف عن الحيوان اختلافات جوهرية لا يمكن تجاهلها في أيّ تقييم لوضعه، إذ على أقل التقادير لا بدّ أن نحسبه «حيواناً متطوّراً» ولا يعني ذلك لزوم ملاحظة جذوره الحيوانية بمقدار ما يلزم ملاحظة «تطوّره» إذ لا يجوز إجباره على «الردّة» إلى الحيوانية ما دام قد طوى تاريخ «الحيواني» ودخل مرحلة الإنسانية الجديدة من حياته.

هذا ما يقتضيه المنطق العلمي.

ولكن الماديات المعاصرة ترفض ذلك بإصرار، وتؤكّد على أنّه

«بعد داروين لم يعد في وسع الإنسان إلاّ أن يعتبر نفسه حيواناً[1]».

يقول جورج حنّا الكاتب الماركسي: «إذا أخذنا بالنظرة الداروينيّة، وجب علينا في هذا البحث أن نعود إلى الوراء لنرى كيف تطوّرت الحياة منذ ظهورها إلى يومنا هذا؟ كيف انتقل الأحياء من طور إلى طور، وكيف تحوّل المجتمع الإنساني؟ وكيف انبثقت الشرائع والأنظمة والحضارات؟ وما هو إنسان اليوم بالنسبة إلى إنسان التاريخ وما هي القِيم الإنسانية؟ وماذا كانت نتيجة التحوّل العضوي؟ وماذا كان تأثيره في حياة الإنسان وأوضاعه الاجتماعية والنظامية[2]».

بهذه الرغبة في تعميم النظرية، يقرّر الداروينيّون «حيوانية الإنسان»، ومن هذه الرغبة نشأت اتجاهات حيوانية في علم النفس، والاقتصاد، والاجتماع فنشأت الفرويدية، والتفسير الجنسي للسلوك.

ونشأت الماركسية، والتفسير الآلي لحركة الإنسان.

ونشأت المادّية التاريخية، والنزعة الاقتصادية في تفسير الاجتماع.

وبين هذه النظريات، انهارت ذات الإنسان وقيمه، وتاريخه. فأصبح تاريخه، هو تاريخ معدته، أي تاريخ بحثه عن الطعام والشراب!

وأصبحت قيمه، مجرد انعكاسات للوضع المادّي، والاقتصادي من دون أن تكون لها أيّة قيمة ذاتية، لأنّها لا تملك رصيداً في الوجدان الإنساني، فالوجدان لا وجود له، في عرف هذا التفسير!

وأصبح الإنسان نفسه «آلة» للإنتاج، يرتفع ثمنه بمقدار ما ينتج،

---

(١) جوليان هكسلي. الإنسان في العالم الحديث Man in the modern world.

(٢) قصّة الإنسان ص ١٢ــ١١.

فإذا ما عجر عن الإنتاج، سقط عن الحياة! تماماً كما يرتفع ثمن البقرة، بمقدار ما تدرّ من لبن، فإذا ما عجزت عن ذلك، لم تصلح إلاّ للشنق على صنارة الجزارين.

وهكذا تنزّلت قيمة الإنسان «بفضل» النظرية الداروينيّة. وتناسب «انحطاطه» بصورة عكسية، مع تصاعد موجة «التطوّر» في ترومومتر الفكر المادّي المعاصر.

والسؤال هنا، فما هو رأي الإسلام؟

لا بدّ قبل أن نستعرض رأي الإسلام، من أن نكمل صورة الإطار الذي صنعته الماديات للإنسان ليتسنّى لنا بعد ذلك المقارنة بين الصورة الواقعية الجميلة التي يرسمها الإسلام، وبين الصورة الطوباوية المشوّهة التي ترسمها هذه الماديات.

عن القِيم الإنسانية

تذهب الماديات المعاصرة، بالاعتماد على مبدأ التطوّر إلى أن القيم الإنسانية مجرّد انعكاس عن الوضع المادي أو الطور الاقتصادي الذي يعيشه، وكما أنّ الوضع المادي لا ثبات له، ولا مقاييس، فإنّ القيم الإنسانية أيضاً لا ثبات لها ولا مقاييس، وإنّما تتطوّر مع التطوّر المادّي، فهي إذن خاضعة لذلك.

فإذا اقتضى الوضع الاقتصادي في وقت من الأوقات أن تكون المرأة عفيفة ومخلصة لزوجها، إخلاصاً تامّاً، فهذا انعكاس للبيئة الزراعية، وليس قيمة إنسانية، وهذا يعني أنّه إذا تبدّلت البيئة الزراعية، وأصبحت بيئة صناعية فلا حاجة إلى الالتزام بالعفاف والإخلاص للزوج، وإنّما «تتحرّر» المرأة من كلّ التزام زوجي أو

خلقي، ويصبح «الإخلاص للزوج» قيداً لحريّتها ولا مبرّر له.

أمّا «الفلسفة» التي تقدّمها هذه الماديات لذلك فهي: إنّ العفّة كانت نتيجة تبعيّة المرأة للرجل اقتصادياً، فما دامت قد أصبحت المرأة مستقلّة لا تعتمد عليه في الرزق، فهي كذلك لا تتعفّف من أجله، وإنّما تصنع بنفسها ما تشاء، وتتحوّل القيمة الجديدة، المنعكسة عن الوضع الاقتصادي، من العفّة الجنسية إلى الإباحية الجنسية!

أمّا من يغيّر هذه القيم؟ فليس هو الإنسان، ولا فكره ولا وجدانه وإنّما هو «التطوّر: الذي يفرض نفسه بالجبر والقوة، والإكراه، بمقتضى «القضاء والقدر» التاريخيين اللذين يطلق عليهما لقب «الحتميّة» وحسب هذه الحتميّة فإنّ «الطعام» و«الجنس» هما الغايتان الرئيسيتان لوجود الإنسان فهو لا يقوم بعمل، ولا يتحرّك خطوة، ولا يفكّر دقيقة إلاّ استجابةً للجنس أو بحثاً عن الطعام.

فالإنسان «حيوان» لا يفرق عن أيّ حيوان آخر إلاّ في أنّ الأخير لا يقهر على شيء ليس في طبيعته، والتعامل معه يجب أن يكون عبر إطاعة غريزته والسير معه على مزاجه هو دون تعديل، بينما الإنسان يفرض عليه «التطوّر» من فوق خارجاً عن إرادته وليس أمامه أيّة فرصة إلاّ الإطاعة المطلقة.

عن السلوك الإنساني

على أساس «النظريّة الداروينيّة» أقامت الماديات تفسيرها للسلوك الإنساني، فقالت بأنّ التنافس هو الحافز الوحيد للعمل والإنتاج، وإنّ الإنسان بحكم كونه حيواناً متطوراً، مخلوق شرير بطبعه ـ أو هكذا يجب أن يكون ـ وإنّ الرغبة في العدوان، لبقاء

الأصلح هي طبيعة في الإنسان، تماماً كما هو الحال في نمل الحصاد[1].

وإنّ على كلّ فرد أن يكافح الشر الذي طبع عليه المحيطون به من الناس وأن يشقّ طريقه في وسطهم بنفس السلاح الذي يحاربون به، وهو: الطموح للبقاء، وأكّد فرويد بالاعتماد على ذلك، هذه النظرية المريضة، ولطم كبرياء الإنسان حينما وصمه بأنّه مخلوق لا تحدوه في تصرفاته سوى رغبتين اثنتين هما: الرغبة الجنسية، والرغبة العدوانية.

وبنى نظرياته، على أسطورة أوردها دارون عن عالم «الأبقار» فأدخل عليها بعض التعديلات، وألصقها بعالم الإنسان، ففي عالم البقر تهيج الثيران في موسم الإخصاب فتقتل «أباها الشيخ» ثم تتقاتل فيما بينها على من يمتلك الأم؟ فكلّ يريد أن يفوز بها لنفسه، وتشتعل المعركة فترة طويلة قبل أن ينجلي الغبار عن جثث الثيران

---

(١) ليس صحيحاً أنّ العدوان هو جزء من حياة الإنسان. وإذا كان ذلك صحيحاً في عالم الحيوان حيث يبدو وكأنّه في حالة صراع بعضه مع بعض، ولكن ليس صحيحاً أنّ الإنسان مجرّد حيوان.
إنّ ما يمتاز به الإنسان لا يجوز أن يغفل عنه في تقييم شخصيته فالإنسان عنده قوة العقل، وقوّة التمييز وقوّة الإرادة، وقوّة الخيال، بينما يخلو الحيوان من ذلك تماماً.
وإذا أُهملت «إنسانية» الإنسان فلا بدّ أن يأتي ذلك على حساب ذاته، لأنّ أيّ تجاهل لحقيقة الإنسان يعني القضاء عليه.ولقد كذّب التاريخ الإنساني نظرية دارون في «العدوانية» حيث أثبت أنّ الحرب أمر يمكن تجنّبه، فلا تدلّ حضارة الهند القديمة ـ مثلاً ـ التي ترجع إلى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد على أيّ أثر للحرب وهناك عصور في تاريخ الصين المبكر، وفي تاريخ حضارة الأدكا في بيرو، لم تظهر فيها ـ هي الأخرى ـ الحرب إطلاقاً.
للمزيد من التفاصيل راجع: «نظرات على عالم اليوم» تأليف الرئيس تيتو ص ٧ـ٨.

الضعيفة التي تتمزّق بفعل أقوى الثيران. الذي يخرج من المعركة بانتصار ساحق، فيفوز بالأم بلا مزاحم، ويقضي معها رغبة جنسية طويلة.

وراق لفرويد أن ينقل الصورة إلى عالم الإنسان، فنسج أسطورة عن البشرية الأولى، وتخيّل فيها أنّ البشريّة في الماضي السحيق ارتكبت جريمة مروّعة، انتقشت على أثرها الخطوط العريضة لما نسمّيها اليوم بـ«الوجدانيات» في ذهنية الناس جميعاً. وتبدأ الأسطورة هكذا:

- «أحسّ الأولاد برغبة جنسية نحو أمّهم، ولكنّهم وجدوا أباهم حائلاً دون الوصول إلى هذه الشهوة، فقرّروا أن يتخلّصوا منه، بالقضاء عليه، وبالفعل... قتلوه.

وما إن أتمّوا فعلتهم الشنيعة حتّى أحسّوا بندم شديد على ما قدّمت أيديهم، فأقسموا فيما بينهم على أن يقدّسوا ذكراه، ونشأت بذلك أوّل عبادة في الأرض: عبادة الأب.

ثمّ وجدوا أنّهم سيتقاتلون فيما بينهم على أمّهم، فلا ينالها أحد منهم فحرموها على أنفسهم جميعاً، ونشأ بذلك أوّل تحريم جنسي، وصارت الأم منذئذٍ محرّمة على أبنائها.

حدث هذا في البشريّة الأولى، ولكنه لم يترك البشرية في راحة.

وكلّ الديانات - يقول فرويد - التي جاءت بعد ذلك هي محاولات لحلّ المشكلة ذاتها (إحساس الأبناء بالجريمة) وهي تختلف بحسب مستوى الحضارة التي ظهرت فيها والوسائل التي تطبقها، ولكنّها جميعاً تهدف إلى شيء

واحد وهي ردّ فعل لنفس الحدث (قتل الأب) الذي نشأت عنه الحضارة، والذي لم يدع للإنسانية منذ حدوثه لحظة واحدة للراحة»[1].

بهذا النوع من التفكير الأسطوري ينسج فرويد نظرياته في علم النفس، والسلوك الإنساني ويدعي بناء على ذلك ما يلي:

١ ـ «إنّ الذكر، يكرّر، ما فعله آباؤه على مدار التاريخ. فهو يحسّ بجوع جنسي نحو أمّه، ويحاول أن يمارس معها العمل الجنسي لولا أنّه يجد أباه حائلاً، فيكبت شهوته الجنسية في أعماقه، وبذلك تنشأ عقدة «أوديب» في ذاته. ومن هذا الكبت المقيت، ينشأ الضمير!

٢ ـ وما دام أنّ الولد، لا يستطيع ممارسة الجنس مع أمّه، لأنّه لا يقدر بحكم صغره، على التخلّص من والده فإنّه يعيش حالة شهوانية نحو هذا «الجنس المحظور» وتظهر آثار هذه الحالة في التهامه لنهد أمّه وامتصاص الحليب منه. وفي حبّه للالتصاق بها. وفي مصّ الإبهام وفي تحريك الأعضاء .. إلخ..

٣ ـ والولد مع ذلك يتلبّس بشخصية والده في منطقة لا شعوره، فيمنع نفسه من ارتكاب العملية مع أمّه تماماً كما يمنعه أبوه من ذلك، وبذلك تنشأ القيم العليا في حياة الإنسان.

٤ ـ ومن الكبت، والدفع الجنسيين ينطلق «الفن» و«الجمال» و«الحضارة» و«الإنتاج» و«العمل» و«الرغبة في الجريمة» و«الحب» وكلّ الحالات النفسية.

---

(١) «دراسات في النفس الإنسانية» ص ٢٤٦ـ٢٤٧ نقلاً عن «Le demand Taboo» لفرويد.

وعندما يكتمل شكل الإنسان في نظرية فرويد، يتحوّل وجهه إلى وجه القرد، بكامل ملامحه، وأفكاره، وقضاياه!

ويجدر بنا لكي نعرف الرابطة بين الداروينيّة والفرويدية أن نتذكّر أنّ فرويد ولد قبل طبع كتاب دارون: «أصل الأنواع» بثلاث سنوات وبالضبط سنة ١٨٥٦، فنشأ في عصر دارون، فصار دارونيّاً قويّ العقيدة.

ولقد كان فرويد من إنتاج التقاليد العبرية المسيحية في فترة «فرانس جوسف» Frans Josef والعصر الفيكتوري، وقد سبق لهذا العصر، أن كان مصطبغاً أو مشغولاً بالأخلاق، وقد خلط بين التطوّر في الأحياء وتطوّر الأخلاق، فليس من الغريب إن لم يكن فرويد قادراً على تجنّب تقرير Stuacturing ما فهمه عن دوافع السلوك الإنساني بمفاهيم دوافع المجتمع الإنساني الذي كان مألوفاً لديه أو على وجه الدقّة كما كان الدارونيون غير قادرين على تجنّب رؤية الطبيعة بمفاهيم كفاح «التنافس» عن الوجود الذي ظهر في أوروبا في القرن التاسع عشر.

لقد فهم فرويد الحياة العقلية في الإنسان على أنّها تعبير بصورة أساسية عن تداخل عمل الغريزتين: «أروس» أي الحب، و«ثاناتوس» أي الموت. وفحص طفولة فرويد تكشف لنا عن أنّ نظريته في التحليل النفسي ـ كما يؤكّد الدكتور AsleJ Mont ليست إلاّ انعكاساً لحياته الخاصّة. وكان من الممكن التنبؤ بنظريته لو قام أحد بدراسة حياته الخاصّة. فقد نشأ في أسرة كان يحتلّ فيها الرجل المنزلة الأولى، وقد عاش في مجتمع قائم على المنافسة وتشرّب في وقت مبكر وجهة نظر داروِن القسرية ومفهوم الإنسان، على أنّه مكافح فظ ليتحرّر من دوافعه المخرّبة، ولكنّه كان يخيب بصورة

متزايدة في محاولته.

ولقد تركت وجهة نظر فرويد تأثيراً بالغاً على نفسه، فأصبح مفتوناً بغريزة الموت، حتّى أنّه بعد ذلك لم يكن قادراً على مقاومة ميله لرؤية الموت والخراب حيثما كان.

إنّ وجهة نظر فرويد عن طبيعة الإنسان، قائمة على أنّ غريزة الاعتداء هي من أقوى الغرائز فيه، وأنّ الطبيعة العدوانية فيه على العموم شيء غير صحّي يقود إلى المرض.

إنّ وجهة النظر هذه ليست مقبولة من قِبل العلماء لأنّها لا تتفق مع الحقائق.

يقول ألفرد آدلر Alferd Aodler:

- «إنّ ازدياد وتقدم شعور الإنسان الاجتماعي وهو شعور تطوري لا يقاوم يخولنا أن نفترض أنّ وجود الإنسانية مرتبط بالخير بدون انفصال، وأنّ أيّ شيء يعارض هذا ينبغي أن يعتبر خيبة في التطوّر، ويمكن أن يعزى إلى أخطاء حدثت، أخطاء نتجت - مهما كانت أحوالها - في نمو شعور الفرد الاجتماعي...

وإنّ حاجة البشر البيولوجية العظمى هي الاجتماعية وليست مزيجاً من التخريب والحب»[1].

يقول مصطفى محمود:

- «وينكر فرويد الكلام عن الروح.. وينكر أنّ النفس منطقة روحية تعشش فيها السكينة وتنشر الحكمة والمحبّة

---

(١) Social interer: Achallengeto Mankind new Yourk Putham 1938.

أنوارها.. وهو لا يعترف إلاّ بالأعماق السوداء الحيوانيّة التي تصطرع فيها غيلان الغرائز ويقبض فيها سلطان الشهوة على كلّ شيء.. النفس في نظر فرويد شهوة. هي شهوة في جميع مراحلها. ومنذ الطفولة يعضّ الرضيع حلمة الثدي في لذة مشابهة لسعار الجنس عند البالغين. وهو لا يرى في الفن إلاّ شهوة تسامت، فهي لا بدّ من أن تطلب المرأة بالدعوة الجنسية المباشرة تطلبها بقصيدة شعر أو أغنية أو مقطوعة أدبية.

ثمّ يتجرأ على الدين فيخترع نظرية يقول فيها: «إنّ الأديان البدائية عند إنسان الغابة الأوّل نشأت من الرغبة المكبوتة في الأم، والغيرة من الأب (مركب أوديب) فالطفل الذي يعشق أمّه ويغار من أبيه، ويتمنّى موته يخشى أن يعلن هذه الرغبة فيكبتها، وما تلبث أن تتحوّل هذه الرغبة إلى إحساس باطني عميق بالذنب، يحاول أن يعوّضه بفعل عكسي في الظاهر فيعلن خضوعه للأب، ويركع له، ويقدّم فروض المحبّة بدلاً من الجهر بكراهيته».

وكلّ ما نرى في الأحلام من رموز لا يرى فرويد فيها إلاّ رموزاً جنسيةً.. النخلة، والعصا، والثعبان، والقلم، والبرج كلّها رموز لعضو الذكورة.. والحلق، والحفرة، والكهف، والزجاجة، وصندوق المجوهرات، والدائرة. كلّها رموز لعضو الأنوثة.

وهكذا يترجم فرويد كلّ ما يدور في النفس إلى شهوة .. ولا يعترف بأيّ حافز يحرّك الإنسان سوى حافز الجنس..

والاختلاق والتعسّف يبدوان من أوّل كلمة في نظريّة فرويد، فهو يتصوّر أنّ الرضيع يتعلّق بحلمة الثدي بلذّة جنسية مع أنّ هذه اللذة لا يعرفها إلاّ .. البالغون؟

والرضيع مخلوق ناقص لم تكتمل بعد إحساساته، ولا يصحّ أن نتصوّر منه، وهو يرضع، أكثر من شعور الجوع الفسيولوجي.

أمّا نظريته عن الدين فهو مجرّد هذيان.

ونحن أمام مجموعة أخطاء علميّة:

أوّلاً - تصوّره أنّ الأديان البدائية نشأت من الموقف الأوديبي للطفل الذي يعشق أمّه، ثمّ لا يجد مهرباً من هذا العشق المحرّم سوى أن يكره أباه ويتمنّى موته.

وينسى فرويد أنّ التحريم Taboo هو في ذاته حظر ديني، ومعنى ذلك: أنّ الحظر الديني لعشق الأم سابق على الموقف كلّه، وبهذا تنهار جميع استنباطاته التي يستدلّ بها على أنّ الدين لاحق، وأنّه ناشئ من تحريم الأم.. وهو بهذا يضع العربة أمام الحصان، وهو يخطئ.

ثانياً - حينما يتصوّر أنّ الدين البدائي ناشئ عن عقدة «أوديب» عند الطفل، ولو أنّنا وافقناه لأصبح ضروريّاً أن ينشأ أيضاً من عقدة الكنزا عند الطفلة الأنثى (عقدة الكنزا، هي عقدة تعلّق الطفلة بأبيها بعكس تعلّق الطفل بأمّه) ومعنى ذلك أن يكون هناك دينان للذكر والأنثى.. الرجال يعبدون الأب السماوي، والنساء يعبدن الأم السماوية.. وهي أمور غير واردة في أيّ دين من الديانات البدائية.

والخطأ الثالث ـ والمهم ـ هو هذا الربط بين الديانات الوثنية البدائية والأديان السماوية، واعتبار الحكم الذي يصحّ على الأولى ينسحب على الثانية، فإذا ثبت فساد الأولى فهذا يعني فساد الثانية، وهو موقف شبيه بمن يسفه الطب العلمي العصري لمجرّد أنّه بدأ في العصور القديمة بالشعوذة والسحر والعلاج بالرقى وما شابه وهو منطق مضحك..

أمّا تفسير فرويد للأحلام بأنّها كوابيس جنسية فهو تفسير ساذج، وكلّ منّا له في خبراته المباشرة أحلام تخرج من صفوف إطار الجنس.. ومن ذلك: أحلام التنبؤ.. فلا أحد هناك لم يجرّب في حياته ذلك الحلم العجيب الذي يراه في الليل، ثمّ يتحقّق في النهار، كفلق الصبح، وهو نوع من الأحلام ينهار أمامه منطق فرويد وتنهار تفسيراته..

ويبدو أنّ فرويد اليهودي أراد أن يشتم الناس بذكاء فاخترع نظريته عن الجنس ليقول بها لكلّ الناس: أنتم قرود في جبرية قرود.. أنتم حيوانات كلّ ما تحلمون به هو الفساد، والسفاح، والجماع.. أراد بهذا أن يخلع كلّ منّا دينه ويتبرأ منه.. فيقوم هو في النهاية ليقول: أصبتم كلّ الصواب في التبرؤ من دينكم، وإنّ هذا عين العقل، أمّا أنا فأثبت ديني.. كما فعل إبليس حينما أضلّ أتباعه عن الحقّ ثمّ وقف في النهاية ليقول.. أما أنا فأخشى اللّٰه رب العالمين»[1].

---

(١) الأسبوع العربي: العدد ٦١٥، ٢٢ آذار ٧١ـ. انظروا .. هذا فرويد نفسه يعترف.

انظروا .. هذا فرويد نفسه يعترف:

- «لقد خلق «موسى» عليه السلام شخصية اليهود بإعطائهم ديناً صعّد ثقتهم بأنفسهم إلى درجة آمنوا معها بأنّهم متفوقون على كلّ الشعوب الأخرى، ولقد بقوا نتيجة هذا التفوّق على الآخرين»[1].

ويقول:

- «لا شكّ أنّهم، أي اليهود، يمتلكون فكرة حسنة جدّاً عن أنفسهم: يعتقدون أنّهم أنبل من غيرهم، وأرفع مستوى وأكثر تفوقاً على الآخرين»[2].

ويقول:

- «إنّ اللاسامية ذاتها القديمة جدّاً قد نشأت لكون الشعوب الأخرى تغار من اليهود، لأنّ المسيح أُنجب منهم»[3].

ويقول:

- «نحن نعرف أنّ موسى أعطى اليهود شعور الفخار لكونهم شعب اللّٰه المختار»[4].

ويقول في رسالة شخصية كتبها إلى صديقه اليهودي «ماكس غراف» حين أرسل له هذا الأخير يسأله عمّا إذا كان من المستحسن أن يضع ابنه في مدرسة يهودية خاصّة كي لا يتعرّض للشعور

---

(١) راجع كتاب «موسى والتوحيد» تأليف سيغموند فرويد ص ـ ١٥٨ فنتاج.

(٢) المصدر نفسه ص ١٣٤.

(٣) موسى والتوحيد ص ١١٦.

(٤) المصدر نفسه ص ١٤٧.

باللاسامية إذا ما وضعه في مدرسة مختلطة فكتب له فرويد يقول:

- «إذا كنت لا تريد لابنك أن يكبر كيهودي، فإنّك تجرّده من منابع الفاعليّة التي لا يمكن أن تعوَّض بأنّ شيء آخر، سوف يكون عليه أن يناضل كيهودي، وعليك أن تنمّي فيه كلّ الطاقة التي يحتاجها لهذا النضال، ولا تحرمه من هذه المزيّة»(١).

عن قيمة الإنسان

تركز الماديات المعاصرة على بندين من بنود النظرية الداروتيّة حينما تقوم بتقييم الإنسان، وبالاعتماد على هذين البندين تحوّل الإنسان من «كائن» خُلق له الكون، إلى مجرّد «آلة» بسيطة في الكون، والبندان هما:

أ ـ إنّ الكائنات الحيّة تتّبع في الحياة خطّاً جبريّاً حتميّاً، ينشأ من عوامل البيئة الماديّة- الخارجة عن ذاته - وهي في أثناء عملية «التكييف حسب المحيط» هذه لا بدّ أن تقدّم ضحايا كثيرة من الكائنات التي لم تستطع أن تتلاءم مع المحيط.

وإنّ هذه الكائنات لا تملك إزاء هذا التطوّر سوى الاستسلام التام، أو التعرّض للانقراض الحتمي.

ب ـ إنّ الإنسان ليس سوى هذا الجسد الخارجي فلا روح، ولا عاطفة، ولا وجدان، وبالطبع فلا آخرة، ولا حياة بعد الموت.

وعلى أساس هذين البندين رسمت الماديات المعاصرة صورة للإنسان على جدران التاريخ بصفته كائناً ذليلاً، تحكمه الحتميات

(١) فرويد والتقاليد اليهودية الغيبية ـ دافيد باكمان ص ٤٧.

الاقتصادية والاجتماعية. ولا يستطيع مقاومتها إلاّ إذا آثر الموت والانقراض.

وقد قامت المادّية بتقييم الإنسان هكذا:

- إذا جئنا بإنسان زنته مائة وأربعون رطلاً، ونظرنا إلى أجزائه، وجدنا أنّ جسمه يحتوي على المواد التالية:
  كمية من الدهن، تكفي لصنع سبع قطع من الصابون!
  كميّة من الكربون، تكفي لصنع سبعة أقلام رصاص!
  كمية من الفسفور، تكفي لصنع ١٢٠ عود ثقاب!
  كمية من المغنسيوم تصلح كجرعة واحدة من المسهلات!
  كمية من الحديد، تكفي لصنع مسمار متوسط الحجم!
  كمية من الجير، يكفي لتبييض عش للدجاج!
  كمية من الكبريت، تكفي لتطهير جلد «كلب» واحد من البراغيث التي تسكن شعره!
  كمية من الماء تملأ برميلاً سعته عشرة جالونات[1]!

وإذا كانت هذه المواد مجتمعة لا تساوي أكثر من ٣ دولارات، فهذا يعني أنّ «سعر» كلّ إنسان لا يزيد على ٣ دولارات.

وإذا كانت المواد «المادية» محكومة بالنواميس الطبيعية من دون أن يكون لها أي اختيار، فإنّ الإنسان «المركّب» من هذه المواد، محكوم هو الآخر بالنواميس الطبيعية وليس له أيّ اختيار.. أيضاً.

وهكذا انحطّ الإنسان لدى الماديات المعاصرة، حتّى أصبح ينقسم عندهم هكذا:

---

(١) راجع كتاب «نظرات في القرآن».

♦ إنّ هناك ثلاثة أوجه بشريّة هي:

أ ـ الوجه المغولي.

ب ـ الوجه الزنجي.

ج ـ الوجه الأوروبي.

فالوجه المغولي يشبه وجه قرد جاوا، المسمّى «أورانج أوتان» فالإنسان الصيني في بعض أخلاقه وتركيب جسمه يشبه هذا القرد، فكلاهما يقعد بعد أن يطوي ساقيه تحته، وكفّ الصيني مخطّط على طريقة كفّ الأورانج، وعندما يفقد الصيني عقله ينحو نحو الأورانج في جملة عاداته وأحواله. وكذلك الأوروبي إذا فقد عقله وجنّ بنوع خاص من الجنون قعد بهيئة الشمبانزي. أمّا الزنجي فيرتد في جنونه إلى الغوريلا. والإنسان وقت الجنون يردّ إلى أصله، لأنّ كفاياته العقلية التي تختل هي الكفايات العليا الجديدة التي لم ترسخ بعد في تركيب جسمه، وهي أيضاً أولى الكفايات التي تؤثّر فيها الخمر أو الشيخوخة[1].

يقول هـ. ج. ولز، بمزاج ساخر:

♦ «ولقد أعجب بعض علماء الأنساب بنظرية تتساءل عمّا إذا كان البشر يعودون إلى أصل ثنائي أو ثلاثي، فيه يكون الزنج منحدرين من سلف يشبه الغوريلا، بينما ينحدر الصينيون من أورنج يوتانج أولى، على حين يجيء

---

(١) من تقييم للإنسان للدكتور «كروكشانك» راجع «نظرية التطور وأصل الإنسان» ص ١٩٣ ـ ١٩٤.

الجنس الأبيض من سلف يشبه الشمبانزي، وبناءً على هذه النظرية البراقة يكون الشمبانزي هو الأخ الأدنى للأوروبي، وله الحق والأفضلية في أن يتغذّى على مائدته وأن يصاهر أفضل العائلات (النوردية) أكثر مما للزنجي أو الصيني اللذين هما أبعد صلة».

ويعلّق السيد «ولز» على هذا «التمييز العنصري» الموهوم بقوله:

- تلك أفكار عقيمة مستحيلة الوقوع، لا يجيزها العقل السليم وما نذكرها هنا إلاّ.. لكي تنبذ»[1].

تعميق الآلية في الإنسان

يقول ماركس:

- «في الإنتاج الاجتماعي الذي يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محدودة لا غنى عنها، وهي مستقلّة عن إراداتهم (...) وعلاقات الإنتاج تطابق مرحلة محدودة من تطوّر قواهم الماديّة في الإنتاج. والمجموع الكلّي لهذه العلاقات يؤلّف البناء الاقتصادي للمجتمع، وهو الأساس الحقيقي الذي تقوم عليه النظم القانونية والسياسية والتي تطابقها أشكال محدودة من الوعي الاجتماعي، فأسلوب الإنتاج في الحياة الماديّة هو الذي يعيّن الصفة العامّة للعمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية في الحياة، وليس شعور الناس هو الذي يعيّن

(١) معالم تاريخ الإنسانية ج ١ ص ٦٠.

وجودهم. بل إنّ وجودهم هو الذي يعيّن مشاعرهم»[1].

ويقول أنجلس:

- تبدأ النظرية الماديّة من المبدأ الآتي: «وهو أنّ الإنتاج وما يصحبه من تبدّل المنتجات هو الأساس الذي يقوم عليه كلّ نظام اجتماعي، فحسب ذلك نجد أنّ الأسباب النهائية لكافّة التغييرات والتحوّلات الأساسية يجب البحث عنها، لا في عقول الناس أو سعيهم وراء الحقّ والعدل الأزليين، وإنّما في التغييرات التي تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل، وإذن فعلينا أن لا نبحث عن هذه الأسباب في الفلسفة، وإنّما في اقتصاديات العصر الذي نعنيه»[2].

وإذا كان الإنسان تحكمه الظروف، من دون أن يكون له شعور ووجدان..

وإذا كانت الوسائل التي ينتجها الإنسان هي التي تقرّر اتجاهاته، وتصنع قراراته في عصر ماركس، حيث كانت الزراعة هي سيّدة المواقف كلها، فإنّ الأمر قد انعكس في ظلّ التصنيع، فأصبح قرار الإنسان هو الذي يحدّد موارد الإنسان، ونوعيّة وسائله وآلاته.

يقول السيد يوثانت الأمين العام السابق للأمم المتحدة:

- «إنّ الحقيقة الرئيسية المدهشة في الدول النامية اليوم هي أنّ هذه الدول تستطيع - في أيّ مدى - امتلاك أنواع

---

(١) «دراسات في الاجتماع» ص ٦٨-٦٩.

(٢) «الإنسان بين الماديّة والإسلام» ص ٦٦ نقلاً عن «النظام الاشتراكي».

وكميات الموارد التي تقرّر أن تحصل عليها.

فليست الموارد هي التي تحكم القرارات كما كان الأمر سابقاً بل إنّ القرار هو الذي يخلق الموارد. وهذا هو التغيير الكبير وربّما كان أكثر التغييرات ثورية على الإطلاق».

ولكن الماركسية تصرّ على أنّ وسائل الإنتاج هي التي تحدّد علاقات الإنسان، رغم مخالفة العلم والفكر والفلسفة.

* * *

ثمّ إنّه إذا كان الإنسان مجرّد كائن تحكمه الظروف، والآلات، من دون أن يكون له شعور، ووجدان، ومن دون أن تحكمه مقاييس العدل والحق، ومن دون أن يستطيع تغيير هذا الواقع، فهل يمكن أن نعتبره متميزاً عن بقيّة الكائنات؟ طبعاً .. لا.

إنّه على هذا الرأي ظاهرة من الظواهر، كظاهرة الأشجار والأحجار والنباتات: قيمته: إنتاجه، فإذا عجز عنه سقط عن القيمة.

* * *

ترى:

إذا أردنا أن نضع قائمة تفصيلية عن حقيقة الإنسان كما تراه الماديات المعاصرة فكيف كانت تأتي القائمة؟

لا شكّ أنّ النقاط التالية ستكون من أبرز نقاطها:

أ ـ إنّ الإنسان عبد مستعبد للغريزة الجنسية، وهو، من حيث يشعر أو لا يشعر، يتابع مسيرته على ضوء هذه الغريزة ـ كما يقول فرويد.

ب ـ إنّ الإنسان عبد مهين لشهوة السلطة في أعماقه ـ كما أكّد ذلك نيتشه.

ج ـ إنّ الإنسان أسير ضعيف لا يملك حولاً ولا طولاً أمام الماديّة التاريخية ـ كما يقول ماركس.

د ـ إنّ الإنسان خادم بسيط للطبيعة الآلية والتكنولوجيا ـ كما تقول بذلك الحضارة المادية.

هـ ـ إنّ الإنسان أداة صغيرة للسلطوية السياسية ـ كما تؤكّد السلطات السياسية الظالمة في كلّ أنحاء العالم.

وهكذا تتعاون الماديات المعاصرة في وضع صورة الإنسان ضمن إطار حيواني سافل، تمهيداً لاستخدامه في الأغراض السياسية كآلة مجرّدة عن أيّة قيمة.

أمّا الصورة التي يرسمها الإسلام للإنسان فهي صورة معاكسة لهذه الصورة تماماً.

أ ـ فالإنسان في الدرجة الأولى، كائن مستقل، يختلف في أحساسيسه ومشاعره، وقيمه، عن أيّ كائن آخر. خلقه الله من ذلك الأصل الذي خلق منه النبات والحيوان وهو التراب، ولكنّه خلقه «متفرداً» بين الكائنات الأخرى فقد زوّده بالعقل دون غيره، وبذلك حقّق له السيادة والسلطة المطلقة على كلّ من دونه من الأشياء والأحياء. وأعطاه الحريّة، وبذلك كرّس له حقّ تقرير المصير، وجعله الفاعل إزاء الأحداث، يغيّر ما يريد ويبدّل ما يشاء وينتخب الذي يختار.

ولو شاء الله أن يخلق البشر من التراب فحسب، من دون أن يزوّده بروح خاصّة تختلف عن أرواح الحيوانات لما كان إنساناً،

لأنّ التراب المركّب من العناصر المادية: كالأوكسجين، والأيدروجين، والكربون، والفوسفور، والحديد وما شابه ذلك.. إلخ إنّما يصلح أن يتطوّر إلى تمثال من الفخّار، متحرّك أو غير متحرّك، كالأجهزة الآلية، وفي أفضل التقادير كالعقول الآلية، التي لا تنبض بالعقل والفضيلة، لا أن يتطوّر إلى إنسان يليق بخلافة اللّٰه في الأرض، ويجدر برضوان اللّٰه ونعيمه في الجنة.

غير أنّ اللّٰه شاء أن يخلق البشر، قبضة من طين الأرض، ونفحةً من روح اللّٰه، تتجسّد في الأول رغبات الأرض، وضرورات الحياة من طعام وشراب وجنس، وتتمثّل في الثانية تطلّعات العقل، ومعاني الفضيلة، وهاتان معاً تشكلان جوهر الإنسان.

ويشهد بتفرّد الإنسان، حياته المعاصرة، والقديمة، فالإنسان يقضي ضرورات الجسد، منذ فجر تاريخه وحتّى اليوم، مختلفاً عمّا يقضيها الحيوان، فحينما يريد الاستجابة لنداء الجنس يضع منهاجاً خاصّاً، ومراسيم خاصّة على أساسه التهذيب والتجميل والاختيار بينما الحيوان يندفع نحو الجنس من دون التمييز، وبلا اختيار في النوع والقدر والظرف الملائم.

وحينما يريد الإنسان أن يأكل، يحاول أن يكيّفه تكييفاً كاملاً يلائم جسده ونفسيته، بينما لا يعرف الحيوان أي معنى للتكييف، فيفترس الحيوان الآخر ويقتطع من لحمه، ليسدّ به جوع معدته.

وحينما يريد أن يشرب الإنسان يبحث عن الماء العذب اللذيذ فإذا لم يجده قام بتصفية الماء العكر، بينما يشرب الحيوان الماء عذباً كان، أم آسناً، فيملأ منه كرشته بلا تمييز.

ب ـ بسبب هذه الطبيعة المزدوجة التي رُكّبت في الإنسان، فإنّه لا يُسمح له أن يترك جانباً على حساب جانب آخر، فلا يجوز له أن

ينتكس إلى عالم الحيوان، فلا يلتزم بنواميس العدالة والحق، والخير، كما لا يجوز له أن يهمل الجانب الجسدي، بل عليه أن يكرّس في أعماقه المُثُل العليا، إلى جانب استجابته لرغبات الجنس والطعام والشراب.

يقول القرآن الكريم:

﴿.. وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾[1].

وقد شرح نبي الإسلام هذا المبدأ حينما بلغه أنّ ثلاثة رجال من المؤمنين تحدّثوا فيما بينهم، فقال أحدهم: أنا لا أنام الليل أبداً. وقال الآخر: أنا أصوم النهار ولا أفطر. وقال الثالث: أنا أعتزل النساء ولا أتزوّج أبداً.

فجاءهم رسول الله قائلاً: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا»؟

قالوا: ـ نعم!

فقال ﷺ: «أما والله، إنّي لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكنّي أصوم وأفطر، وأصلّي وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي».

ج ـ إنّ الله خلق الإنسان مزوّداً بطاقات تخوّله القدرة على التطوير والتطوّر، ليس على حساب إنسانيته ووجدانه وإنّما على أساس ثابت من «قاعدته الإنسانية». فالكون خُلِق مفتوحاً أمام البشرية، وهو يستطيع إذا أراد أن يُكرّس سيطرته على الأحياء والأشياء. من هنا فإنّ الإسلام يرى أنّ التطوّر في جوهر الإنسان غير

---

(١) سورة القصص ٧٧.

وارد، ولكن التطوّر في شكله، وأدواته، واجتماعياته أمر ممكن، يقول القرآن الكريم: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾[1].

ومن هنا أيضاً فإنّه لا يقف أمام تطوّر الإنسان صناعيّاً وفكريّاً أيّة عقبات. ولكن الإنسان لا يستطيع أن يغيّر جوهر الحيوان، والنبات والأحجار فيجعلها تفكّر، وتصنع وتنتج.

د - يؤكد الإسلام أنّ الإنسان، هو إنسان، وليس بملاك ولا شيطان، وإن كان قادراً في بعض حالات الهبوط أن ينتكس إلى مستوى الشيطان من الشر، وفي بعض حالات السموّ أن يرتفع بتطلعاته الروحيّة إلى مستوى الملائكة من الطهر، ويؤكّد أيضاً أنّ نفسيّة الإنسان ليست بالنفسية الشريرة التي تتطلع دائماً إلى العدوان كما أنّها ليست بالنفسية الخيّرة التي لا تحتاج إلى التربية وتنمية حبّ الخير فيها.

إنّه يملك الجسد، وقواه الجسدية، وهذا هو رصيده لكي ينطلق.

وهو يملك الوجدان، والعقل وهذا هو رصيده لكي يضبط نفسه، ويمنعها من العدوان.

* * *

وهكذا ينظر الإسلام إلى الإنسان - على عكس النظريات المادية - على أنّه كائن ذو شخصيّة اجتماعية مشحونة بالقيم الإنسانية والإبداعية والروحية، بالإضافة إلى الغرائز التي يمكن توجيهها توجيهاً صحيحاً.

---

(١) سورة الانشقاق ١٩. قد تعني كلمة «الطبق» ههنا الحالة الخاصّة أي: لتركبن حالة بعد حالة. فالكون حسب هذا الناموس في تجديد وتغيير دائمين، ولكن على أساس من «ثبوت» الجوهر الإنساني، باعتبار كلمة «تركبن» تخاطب الإنسان. فالإنسان يبقى إنساناً، وعلى هذا الأساس يتطوّر.

ولذلك فلا تقتصر مسؤولياته على الأكل والشرب والنوم والتزاوج والتناسل والسير على نظام مقرّر محتوم، وإنّما عليه - بالإضافة إلى ذلك - أن يتفاعل مع رسالة اللّه التي ترفعه فوق كلّ كائن، وتؤهله للدخول إلى الجنّة.

فالإنسان، «إنسان» قبل أن يكون شهوة وغريزة، وهذا يعني أنّ مجتمعه يجب أن يقوم على الإدراك، والإبداع والخلق بينما الحيوان «حيوان»، وهذا يعني أنّه مجرّد غرائز وشهوات وعادات.

فالمطلوب من الإنسان ليس هو التسليم لشهوة الأكل والشرب، والجنس والسلطة. بينما المطلوب من الحيوان لا يعدو أكثر من اتّباع الغرائز وشحذ الشهوات.

هذه هي عصارة نظرة الإسلام إلى «الإنسان» قدمها قبل ١٤ قرناً من الزمان، وجاء التقدّم العلمي ليدعمها في كلّ بندٍ من بنودها ويدحض وجهة نظر الداروتيّة، وما نتج عنها من نظريات، في الفلسفة والاقتصاد وعلم النفس .. في كلّ بند من بنودها، أيضاً.

ولقد أثبتت البحوث العلمية في علم النفس وعلم طبقات الأرض وبقية العلوم، أنّ الإنسان كائن متفرد، لا يشبه أيّ كائن آخر، إلاّ في بعض الموارد الجزئية التي لا يمكن أن تكون دليلاً لاعتبار الإنسان مجرّد حيوان متفوق.

يقول الدكتور ألكسيس كاريل DR. Alexis Carrel الحائز على جائزة نوبل في الطب:

- «لقد نبذ الإنسان العصري كلّ نظام في شهواته، ومع ذلك فليست للآداب البيولوجية والصناعية أيّة قيمة عملية لأنّها آداب مصطنعة ولا تدخل في اعتبارها إلاّ ناحية

واحدة من نواحي الإنسان وهي الناحية المادية.. إنّها تتجاهل بعض وجوه نشاطنا التي هي أكثر أهمية، ولا تزوّد الإنسان بسلاح على درجة كافية من القوة ليحميه من رذائله الفطرية[1]».

ويعترف جوليان هكسلي، الداروني الساخن:

- «إنّ أولى خواص الإنسان الفذّة وأعظمها وضوحاً، قدرته على التفكير التصويري وإذا كنت تفضّل استخدام عبارات موضوعية فقل: استخدامه الكلام الواضح.

ولقد كان لهذه الخاصيّة الأساسيّة في الإنسان نتائج كثيرة، وكان أهمّها نمو التقاليد المتزايدة، ومن أهم نتائج تزايد التقاليد ما يقوم به الإنسان من تحسين فيما لديه من عدد وآلات. إنّ التقاليد لهي الخواص التي هيّأت للإنسان مركز السيادة بين الكائنات الحيّة وهذه السيادة البيولوجية في الوقت الحاضر خاصيّة أخرى من خواص الإنسان الفذّة. وهكذا يضع علم الحياة الإنسان في مركز مماثل لما أنعم به عليه كسيّد المخلوقات كما تقول الأديان.. ولذلك كان لوجهة النظر الدينية أساس جيولوجي متميز»[2].

ويعترف أيضاً:

- «..إنّ الجنس البشري - كنوع - فريد في صفاته البيولوجية الخالصة، ولكن لم تلقَ هذه الصفات من العناية ما تستحقّ سواءً من وجهة نظر علم الحيوان، أو

---

(١) L'Homme Inconnu ترجمة عادل شفيق ص ١٠٦.

(٢) جوليان هكسلي «الإنسان في العالم الحديث» Man in The modern world P. 1-30

من وجهة نظر علم الاجتماع.

إنّ خاصيّة الإنسان الجوهريّة ككائن حيّ مسيطر لهي التفكير المعنوي»[1].

ومن الناحية السيكولوجية يعترف:

- «..ولهذه الزيادة في المرونة نتائج أخرى سيكولوجية يتناساها رجال الفلسفة العقلية والإنسان فريد أيضاً في بعضها، وقد أدّت هذه المرونة مثلاً إلى حقيقة أنّ الإنسان هو الكائن الحيّ الوحيد الذي لا بدّ أن يتعرّض للصراع النفسي»[2].

وإذا كان الإنسان «فريداً» في شخصيّته، فهل يمكن لنا أن نلفّه في أكفان الحتميات الحيوانية! فنعتبره مثلاً: مسلوب الإرادة، ومحطم الكرامة، لا وجدان له ولا ضمير؟

إنّ أقوى دليل يمكن أن نقيمه على تفرّد الإنسان، في حالاته، ونفسياته، ومشاعره، هو وجدان الإنسان ذاته .. لأنّ الوجدان - بالرغم من النظريات الماديّة المعاصرة الرامية إلى كنسه من ذات الإنسان يبقى أبداً ينبض في أعماق أعماقه، ويدلّه على مواطن الخطأ، ومسارح الصواب.

لقد شاهد الماديون أنّ الحيوانات والجمادات، والكواكب والأشياء كلّها تقوم على سلسلة محكمة من النظم والقوانين والأسباب والمسبّبات، فقاسوا الإنسان على ذلك، وقالوا: إنّ الإنسان أيضاً، كالحيوان والجماد، مقيّد بوضعه ونفسياته ومشاعره، بحيث لا يمكنه تخطّيها في أيّ وجهٍ من الوجوه..

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

وجاء فرويد ليؤكّد «الحتمية الداخلية» ويعتبر الإرادة الإنسانية، ظاهرة خادعة، لأنّها حرّة في الظاهر، ولكنّها مقيّدة في الباطن وأسيرة لجبرية الغرائز وآلية الحوافز الباطنية..

وهو كلام فارغ.. لأنّ وجدان كلّ فردٍ منّا يقول إنّه حرٌّ .. وإنّه يمشي، ويعمل، ويتحرّك كما يريد، من دون أن يكون هناك شيء يفرض عليه «مواقفه» إلاّ في حالات استثنائية. إنّ الإنسان وحده هو الكائن الحُرّ المتمرّد الثائر على طبيعته وعلى ظروفه، ولهذا فهو يتحمّل الأذى والحرمان في سبيل «فكرة» عليا أو مصلحة عامّة، فيحكّم إرادته على الغرائز، وعقله على العادات والتقاليد..

لقد بنى فرود نظريّته في السيكولوجيا الإنسانيّة على افتراض صحّة النظرية الدارونيّة، فجرّد الإنسان من كلّ القِيم الروحيّة، ونظر إليه كنبات يتطلّع فقط إلى الماء، والغذاء والأشعّة الشمسيّة.

ولكن سرعان ما تقدّمت البحوث العلمية، والتجارب الواسعة النطاق، فاكتشفت أنّ النظريّة الفرويديّة نظريّة أسطورية لا تقوم على أيّ سند علمي، لأنّها تنظر إلى جانب واحد من جوانب حياة الإنسان، وفي حالات شاذّة من حالاته فقط.

يقول الدكتور ألكسيس كاريل:

- «لقد أكّد فرويد على أهميّة الدوافع الجنسية في وجوه نشاط الشعور. ومع ذلك فإنّ ملاحظاته تتعلّق بالمرضى على الأخص. ومن ثمّ يجب ألاّ تعمّم استنتاجاته بحيث تشمل الأشخاص العاديين، وبخاصّة أولئك الذين وُهبوا جهازاً عصبيّاً قويّاً، وسيطرةً على أنفسهم، ففي حين يصبح الضعفاء، المعتلو الأعصاب غير المتزنين

أكثر شذوذاً حينما تكبت شهواتهم الجنسية، فإنّ الأقوياء يصيرون أكثر قوة بممارسة هذا الشكل من الزهد»[1].

ولقد انحسرت موجة المدرسة الفرويدية بفعل ظهور مدرسة جديدة في التفكير النفسي هي مدرسة «علم النفس الاجتماعي» الذي يقوم على أساس الفحوصات والتجارب، بدل الأساطير والخرافات حيث لفت نظر علماء النفس استعداد الإنسان للتضحية بالملذات الجنسية، ورغبة الغلبة على الآخرين، في سبيل مبدأ أو دين، أو مذهب أو فلسفة معيّنة، أو في سبيل الحفاظ على كرامة وسمعة مجتمعه.

وعلى أساس الدراسات التي قام بها علماء النفس تبيّن أنّ العاملين اللذين اعتبرهما فرويد عنصرين وحيدين في تحريك الإنسان ليسا سوى دافعين غير أساسيين.

وبذلك سقطت النظريات الفرويدية علميّاً!

* * *

والمادية التاريخية، هي الأخرى، تقوم على افتراض خاطئ هو «أنّ الإنسان خاضع أزلي للاعتبارات الاقتصادية، والحتميات الطبيعية .. وأنّ كلّ إنسان ابن طبقته، وهي التي تحدّد حوافزه النفسية وعواطفه ورغباته وشخصيته السلوكية»[2].

---

(١) الإنسان ذلك المجهول ص ١١٦.

(٢) إنّ الماديات المعاصرة تعتبر الإنسان، جماداً خاضعاً للطبيعة التي تقول إنّها خاضعة للمادية الجدلية، وهكذا تسلب حريّة الإنسان، ليصبح كأداة، أو آلة تخضع للقوانين التي تسيّرها كأنّها القوانين النهائية، التي لا تقبل التغيير والتحوير.

وللمزيد من المعرفة راجع: «الماركسية في الفلسفة» لحسني ناثان.

وهي نظرة، تخالف الوجدان، والعلم والتاريخ.

أليس كلّ واحدٍ منّا يشعر بأنّ له حريّة الاختيار إزاء نفسه وإزاء العالم كلّه؟

أليست هذه الماديات، نفسها، تعاقب الأفراد على أعمالهم، باعتبارهم المسؤولين الوحيدين عنها؟

أليس نجد في التاريخ عشرات المفكّرين والسياسيين، الذين ثاروا على طبقاتهم، وانقلبوا على حوافزهم النفسيّة، وعواطفهم الشخصيّة، وسلوكهم[1]؟

إنّ «الماديّة التاريخيّة» إذ تنفي بشدّة إرادة الإنسان، تحيل الأحداث إلى تأثير عوامل الزمن الاقتصادية، وهو أمر غيبي بطبيعة الحال، وهذا يعني أنّ الإنسان لا اختيار له، فهو يُصنع في مجتمعه، كما يصنع الصابون في المصنع، ولا طريق أمامه كي يشقّ طرقاً جديدة، وإنّما هو ينطلق على النهج الذي سمحت به حياته الاقتصادية، ولا ندري كيف تمكّن رجل مثل كارل ماركس، وليد النظام الرأسمالي أن يفكّر بعيداً عن المؤثرات الاقتصاديّة التي ينادي بها؟ هل نزل في قاع الأرض وأخذ يفكّر؟ أم صعد إلى المرّيخ لكي يبحث في أحوال الأرض؟

يقول وحيد الدين خان: «لقد اتضحت أخطاء هذه الفكرة بالتجارب العلمية وحسبنا على ذلك روسيا، هنالك حيث سادت الماركسية نصف قرن من الزمان، ادّعت المادية الماركسية خلاله أنّ أحوال البلاد الماديّة قد تغيّرت تماماً، وأن النظام الزراعي، والمبادلة، وتقسيم الأموال، تعادي الإنسان، وتلعب بمصيره، وليس

(١) راجع: القرآن محاولة لفهم عصري ص ٢٣.

التغيير الفجائي الذي تتحدّث عنه النظرية الداروينيّة، والذي تدفع الطبيعة عن طريقه ألوف الأحياء إلى أحضان الموت المتأزّم، إلاّ نموذجاً عن «خبث» الطبيعة و«عداوتها» المتواصلة للإنسان. حسب هذه النظرية.

* * *

ترى أي الصورتين أكثر واقعية: الصورة التي يرسمها الإسلام للإنسان وعلى أساسها يقول: «القوي العزيز عندي ذليل حتّى آخذ الحقّ منه، والضعيف الذليل عندي قويّ حتّى آخذ الحقّ له»[1] أي: «كن صاحب حق حتّى أحترمك»؟

أم الصورة التي ترسمها المادية ـ الداروينيّة وعلى أساسها تقول «كن قوياً حتّى .. أحترمك»!

---

(١) من كلمات الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

القِسمُ الثالِث

مأساة الإنسان
في ظلّ الماديّة - الداروئيّة

- هل ساهمت النظرية الداروئيّة في التطوّر الإنساني؟

يجيب أصحاب الماديّة - الداروئيّة على ذلك بالإيجاب فيقول سلامة موسى: «لو لم تكن كلمة التطوّر موجودة لما نزعنا هذه النزعة في السياسة والعلوم والآداب والصناعات، فهذه الكلمة قد تملكتنا، وصبغت عقولنا، ووجهتنا في وجهات جديدة لم يكن يعرفها آباؤنا..

فكلمة التطوّر غرست في الأذهان فكرة تدرّج الأحياء ورقيّها جيلاً بعد جيل، فصار للرقي أساس طبيعي، وصارت مخالفته من الفرد أو الأمّة أو الحكومة أشبه شيء بالخروج على السنن الطبيعية، وصرنا نغضب من الحكومة التي لا تفكّر في ترقية التعليم، أو ترقية الزراعة أو نحو ذلك، أو التي تنكر حقّ الأمّة التطوّري في الرقي الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي، لأنّ فكرة التطوّر قد جعلتنا ننزع هذه النزعة»[1].

وإذا كانت كلمة «التطوّر» تؤثّر بهذه الصورة السحريّة في تطوير السياسة والاقتصاد، وكلّ ما يرتبط بالإنسان، فما هو مدى تأثير

---

(١) «نظرية التطوّر وأصل الإنسان» ص ٢٠ـ٢١.

النظريّة، من حيث جانبها الفلسفي، في تطوير أوجه نشاط الإنسان؟

.. بعيداً عن العنتريات الخطابية فإنّ الدارونيّة لم يكن لها أيّ تأثير في التطوّرات الحضاريّة، التي ابتدأت في القرن التاسع عشر، بل العكس هو الصحيح، فإنّ الدارونيّة حيث حطّت من قدر الإنسان - ككائن متفرّد له السيادة الكاملة على الكائنات - قلّلت من تطلعاته، من حيث يشعر أو لا يشعر. وأدخلت في فكره، أنّه ليس سوى حيوان بسيط، تفضّلت عليه الطبيعة بشيء من الامتيازات على أخيه الحيوان. وحيث ربطت مصيره بعوامل الطبيعة، وليس باختياره الشخصي خاصّة بعد أن لم يكن التطوّر في رأي الدارونيّة بصورة عمودية صاعدة، دائماً، فالتفاعل الذي يحدّده دارون بين الكائن الحيّ والطبيعة التي حوله قد يؤدّي به إلى سلوك تطوّر نزولي، مثل الحيوانات التي اضطرّت بفعل المحيط، أن تفقد الكثير من أعضائها، بعد أن تركت الحياة في الضياء، وأخذت تعيش في الكهوف المظلمة.

وإذا كان الأمر قد وقع بالنسبة إلى سحالي الكهوف، كما تزعم الدارونيّة، أليس من الممكن أن يتكرّر مع الإنسان؟

إنّ الباحث في التاريخ المعاصر، يجد، ولا شكّ، تأثيراً كبيراً للداروينة ولكن ليس، في صالح الإنسان وإنّما في بؤسه، وانتكاسته، حتّى أصبح من الصحيح أن نسمّي العصر الذي جاءت به الدارونيّة، عصر سيادة الدارونيّة، وانهيار الإنسان.

وللإنصاف فإنّه قد يكون للداروينة، بعض التأثير في خلق ما يسمّى بـ«الحضارة الغربية» فقد تمكن الإنسان، في العالم الغربي، أن يمارس الحريّة، بعد أن تخلّص من سلطان الكنيسة، التي كانت تفرض نفسها على عقل وفكر الإنسان وتصادر بعنف وقسوة الفكر الإنساني إذا كان مخالفاً للكنيسة. ولكن يجب أن لا ننسى أيضاً أن

تبدّل النظرة الدارونيّة من سلاح «سياسي» إلى «منطلق فكري» يمكن أن يكون بداية النهاية لهذه الحضارة، وأوّل مسمار في نعش الإنسان الغربي.

يقول السيد محمّد النوري: «هناك من نشط لمحاربة «الدين» باسم الدارونيّة، بغية التخلّص النهائي من تدخّلات الكنيسة، والقضاء على آخر رمق فيها، فقد دأبت الكنيسة على أن تدسّ أنفها في مختلف الشؤون ممّا يعنيها أو لا يعنيها، وتقاوم كلّ حركة فكريّة أو محاولة علمية، بحجّة أنّها تضاد دينها وتناهضه، والأمثلة على ذلك كثيرة، حتّى نشأ من ذلك سخط عارم ومقت عميق أدّى إلى كراهية الدين وتجسّدت هذه الكراهية لدى عامّة الناس في الإقبال الجماعي على الأخذ بكلّ ما كان يسمّى «علمياً» وترداد أصدائه، ولو بدون تفهّم وإدراك، والتصفيق لها بشدّة، يغطّي صخب أبواق الكنيسة، وتجسّدت لدى الخاصّة أيضاً في محاولة خلق اتجاه يضاد اتجاه الكنيسة وإن كان اتجاهاً يخالف العلم، ولذلك كثرت الاستنتاجات الفلسفية السريعة موسومة بطابع العلمية المطلقة تبريراً لموقفها العدائي من الكنيسة.

ولا مجال للشكّ في أنّ المناهضين للكنيسة آنذاك إنّما وقفوا بجانب الدارونيّة، وخلعوا عليها لقب «العلمية» وأكسبوها الشهرة الخارقة لكي يستخدموها سلاحاً ضد الكنيسة لإرغامها على الكفّ من تدخلاتها في المجالات الفكرية والعلمية»[1].

* * *

لقد عرضت النظرية الدارونيّة نفسها كنظريّة بيولوجيّة وكانت تستحق أن تدخل غرف العمليات، ومختبرات التحليل، ليناقشها

---

(١) انظر مجلّة: «أجوبة المسائل الدينية» العددان: الثالث والرابع. ربيع الأول والثاني ١٣٨٤هـ .

المشرط ولكنّها بدل ذلك دخلت مقرّات القيادة العسكرية، لتصبح وقوداً للحروب، ومتراساً للسلطات السياسية، وتبريراً للنزوات الوحشية، وكان أوّل ما ترتّب على ذلك أنّها نظريات خاطئة في المجالات السياسة والاجتماعية استطاعت أن تغلّف بغلاف فلسفي جميل. بعد أن جعلت الإنسان فصيلاً من فصائل الحيوان. ممّا أدّى إلى أن يبني عليها أصحاب هذه النظريات قناعاتهم، قبل أن يتأكّدوا من صحّتها، وقيمتها العلمية، فطلع ماركس، وطلع فرويد، ثمّ ظهر على المسرح هتلر، وموسيليني، ثمّ ستالين وإيزنهاور.. إلى آخر السلسلة، ليكرّسوا جميعاً حيوانيّة هذا الإنسان، وليبرّروا سحقه كلّما دعت الحاجة إلى ذلك، كما تسحق القطعة الحديدية المعطوبة في المصنع ويستبدل بها قطعة أخرى.

فقد أثارت الداروينيّة، والنظريات المستندة إليها، في الإنسان شهوة الجنس، وشهوة السيطرة، وشهوة التملّك، وليس أدلّ على ذلك من الحروب الطويلة التي التهبت، بعد أن دخلت الداروينيّة منطقة اللاشعور الإنساني، وأخذت تدفعه إلى الاستعمار والاستعباد، والإبادة، باعتبارها «ضرورات حياتية» يفرضها منطق الطبيعة، على الجنس البشري الممتدّ على كرة التراب!

وقبل أن نستعرض ذلك بشيء من الإسهاب، لا بدّ أن نبرهن على مدى ارتباط النظريّة الداروينيّة بالماديات المعاصرة، لنعرف مدى مسؤولية هذه النظرية ـ بعد ذلك ـ عن الأخطاء التي ارتكبتها ولا تزال هذه الماديات.

١

العلاقة العضوية بين الداروينيّة، والماديات المعاصرة

في الإجابة عن السؤال ما هي نظرة الماديات المعاصرة بصورة عامّة إلى الداروينيّة؟

يلخص الدكتور صادق جلال العظم، هذه النظرية بقوله:

♦ «.. لا بدّ لنا من الإشارة إلى نظريّة دارون هذا العالم الذي يحتلّ مكانة في علم الأحياء، تشبه تماماً المكانة التي يحتلّها «نيوتن» بالنسبة إلى الفيزياء. إنّه نيوتن البيولوجيا، بمعنى أنّه تمكّن من تفسير أصل الأنواع، وتطوّرها، وتفرّعها، وتعليل تكيّف الكائنات الحيّة مع بيئتها على أساس قوانين آلية محضة، ومن خلال فعل قوى طبيعية ميكانيكية خالصة، لا تدخل فيها التفسيرات التقليدية التي ترتكز إلى العِلل الغائية وإلى أفكار غيبية حول نظام الطبيعة، وضرورة وجود صانع ومنظّم لها. ومع قدوم فرويد على المسرح سادت النزعة الماديّة الميكانيكية علم النفس، وأنتجت تفسيرات جديدة للظواهر النفسيّة، ويكفي أن نذكر هنا أنّ التفسير الفرويدي يرجع شخصية الإنسان المعقّدة إلى عناصرها البسيطة، ثمّ يفسّر هذه الشخصيّة بكافّة نوازعها ومختلف وجوهها»[1].

وعن العلاقات القائمة بين المادية، والداروينيّة يقول أنجلس:

♦ «إنّ المادية قد استوعبت أهمّ الاكتشافات الحديثة في

---

(١) نقد الفكر الديني ص ٢١٥.

عصرها وأهمها:

١ ـ فكرة تطوّر الأنواع عند دارون.

٢ ـ اكتشاف الخليّة الحيّة الذي قام به شوان شيلدن.

٣ ـ فكرة بقاء الطاقة[1].

وعن العلاقات الخاصّة التي تربط الداروتيّة بالماركسية يقول جورج حنّا:

♦ «.. لقد سلك ماركس في بحثه التطوّر الاجتماعي مسلك دارون في بحثه التطوّر البيولوجي، وبيّن أنّ الصراع بين الفصائل الحيّة الذي جعل من الإنسان الكائن الأعلى بين الأحياء، هو العامل الذي لا غنى عنه لبناء المجتمع الأفضل، مجتمع لا يكون مؤلفاً من طبقات متباينة الأهداف والمصالح لا مناص من أن تتصارع فيما بينها كي يكون فيه طبقات مترفة أو محظوظة وطبقات معدومة

---

(١) عرفنا في الفصول السابقة أنّ النظرية الداروتيّة تقوم على ركام من الأساطير، والخرافات، والصدف. أمّا بالنسبة إلى الأصلين الآخرين: اكتشاف الخلية، وبقاء الطاقة، فلا بدّ من الإشارة إلى أن الاكتشافات الحديثة، أثبتت، بما لا يقبل الشك، فناء الطاقة، وقد أشار إلى ذلك القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية، ويعترف به نيوتن، مكتشف الجاذبية، وإدوارد لوثر كيسيل، أستاذ الكيمياء الجيولوجية، والأخصائي في تقدير الأعمار الجيولوجية باستخدام الإشعاعات الطبيعية. وكلود. م. هاثاواي، المستشار الهندسي بمعامل جنرال إلكتريك، ومصمّم العقول الإلكترونية للجمعية العلمية لدراسة الملاحة الجويّة. وأمّا اكتشاف الخلية، فقد جاء يبرهن على انهيار الماديّة ذاتها، التي كانت تعتقد أنّ الجسد يعمل ميكانيكيّاً. وإذا كانت المادية، حسب اعتراف أنجلس، قائمة على هذه الأسس، فلا شك أنّ المادية قد أصبحت اليوم بدون مرتكزات مقبولة، وبالتالي لا يمكن أن تتطوّر مع الاكتشافات الحديثة، لأنّها قد فقدت الأسس التي ارتكزت عليها في الأصل.

ومحرومة، بل يكون فيه طبقة واحدة تعيش، فالمراحل التاريخيّة التي تمرُّ بها الحياة الاجتماعية هي شبيهة بالمراحل التاريخية التي مرّت بها الحياة البيولوجيّة، وكما أنّ الحياة البيولوجيّة تدرّجت مع الزمن، بفعل الصراع بين الفصائل والأنواع، هكذا الحياة الاجتماعية تتدرج مع الزمن بفعل الصراع بين الطبقات المتناقضة المصالح والمتناقضة الأهداف والغايات»[1].

وهكذا، فإنّ ماركس اتخذ الداروينيّة كأساس لفلسفته المادية، واستمدّ منها نظرياته الاجتماعية والاقتصادية، والسياسية.

* * *

ولا بدّ هنا من بيان حقيقة هامّة هي أنّ الماركسية التي اعتمدت اعتماداً كليّاً على الداروينيّة تتناقض في الواقع مع نفسها، تناقضاً كليّاً في الأسس الفلسفية، ممّا يكشف عن التهافت الذي ينخر الماديات المعاصرة.

فالتطوّر الذي يحصل عليه الحيوان وفقاً للداروينيّة نابع من مجموعة عوامل خارجيّة، لا دخل لها بالحيوان ذاته. ولكنّ الماركسية لا تعتقد أنّ التطوّر يحصل بالعوامل الخارجية، وإنّما تعتقد أنّ الصراع الداخلي الناتج من التناقضات الأزليّة في المحتوى الداخلي، هو الذي يؤدّي إلى التطوّر، والتكامل.

---

(١) قصة الإنسان ص ٢٢٦ـ٢٢٧. يُلاحظ أنّ الماركسية تخالف بهذا الاعتقاد مبدأ التطوّر كناموس أبدي، لأنّها حين تبشر بالمجتمع ذي الطبقة الواحدة التي لا صراع فيها، فإنّها تصرّح بأنّ عامل التطوّر أي الصراع غير موجود مما يعني أنّ مجتمعهم المبشّر به، سيكون مجتمعاً جامداً لا تطوّر فيه ولا حراك.

إنّ الداروينيّة تعتقد، وفقاً لقانون المطابقة مع المحيط، أنّ الجهاز العضوي في الكائن يكيّف نفسه وفقاً لشروط البيئة، فإذا كانت البيئة فاسدة، وغير طبيعية فإنّ الجهاز العضوي يبطل نفسه، أو يقلّل من مفعوله، كأن يفقد الكائن الحيّ بعض الميزات التي حصل عليها من جيل سابق، كالحيوانات التي فقدت بصرها نظراً للعيش في الكهوف وترك حياة النور.

وهذا يعني أنّ التطوّر ليس دائماً إلى أعلى. فكثيراً ما يكون عكسيّاً. بحيث إنّنا لو أردنا تعميم هذا القانون على قضايا المجتمع لوجب أن نعتقد أنّ طبقة العمّال تفقد بالعيش في ظلّ نظام أو مجتمع قائم على استغلالها إمكانية القيام بثورة. أو تمرّد في سبيل الحصول على حقوقها.

بينما الماركسيّة تعتقد أنّ التطوّر المنبثق عن تناقضات داخلية تستهدف التكامل دائماً، لأنّها عمليات تقدميّة صاعدة[1].

وبالرغم من وجود تناقض صارخ بين الداروينيّة، والماركسية فإنّ هذه الأخيرة تتحمّس للداروينية، ليس لأنّها تخدمها فلسفيّاً فحسب، بل لأنّها تخدمها في سبيل إقناع الناس بأنّها تعتمد على أسس علميّة.

* * *

وماذا عن مأساة الإنسان في ظلّ الداروينيّة؟

تكثيف الأخطاء

عندما كانت بعض الهيئات السياسية، في المجتمع الأوروبي تتشبث بالداروينيّة، للتخلّص من سلطان الكنيسة وجبروتها، كان

---

(١) انظر: «نقد النظرية الماركسية» للمؤلف.

عليها أن تفرّق بين «الحجّة السياسية» و«الحجّة الفلسفية» فلا تقع في خطأ تبديل الحجّة السياسية إلى حجّة فلسفية، وإضافة استنتاجات فكرية، ونظريّة منها.

وهذا مع الأسف، ما لم تتفطن إليه هذه الهيئات.

فالدعاية للنظرية الدارونيّة من أجل الاستفادة منها كسلاح مضاد للكنيسة، دفعت الكثيرين إلى خطأ الاعتقاد بأنّ الدارونيّة هي فعلاً حقيقة قائمة. فراحوا ينسجون حولها النظريات، والأساطير ممّا زاد في أخطائها الفكرية بشكل كبير.

والمشكلة تتلخّص في أنّ غلاة الدارونيّة، حينما كانوا ينظرون إلى العالم، لم يحاولوا اكتشافه على حقيقته، وإنّما وضعوا على عيونهم «نظارات» داروئية، وبدأوا ينظرون..

فماذا شاهدوا؟.

رأوا الإنسان حيواناً، والدين جهلاً، والحضارة أساطير.. وبكلمة رأوا كلّ شيء على عكس حقيقته. ثمّ بدأوا يكتبون.

ولكي لا نخرج عن إطار الموضوعية، نعرض فيما يلي عيّنات من النظريات المنسوجة على منوال الداروئيّة، في «الدين» و«الحضارة» و«علم النفس» و«الاقتصاد».

أ ـ الدين

إنّ الدين عبارة عن مجموعة من الرؤى والتعاليم التي لا يحتاج للإيمان بها، والتأكّد من صحّتها إلاّ دراسة الأدلّة المقنعة التي يوردها الدينيون على وجود الله، وصحّة الرسالة وصدق الرسول.

والدين من جانب آخر، ضرورة حياة، يشعر بذلك كلّ إنسان في

أعماق قلبه، ويعرفه في صدق ضميره.

ولكن النظريات الماديّة، لا يروق لها هذا التفسير الصادق عن الدين، وإتماماً لأساطيرها تقدم التفسير التالي لظهوره، تقول:

- «إنّ القضايا الدينيّة وُجِدت لأسباب تاريخية، أحاطت بالإنسان، فلم يكن باستطاعته أن يفلت من السيول والأعاصير والطوافانات والزلازل والأمراض، فتصوّر قوى غير مرئيّة يستغيث بها، لتنقذه من البلايا، ومن ناحية أخرى فإنّ الإنسان لم يكن يجد تفسيراً لبعض الأحداث كنزول المطر وما شابه ذلك فأسند ذلك إلى فاعل ما، فاخترع فكرة اللّٰه».

يقول محامي الداروينيّة المعاصر جوليان هكسلي:

- «لقد خَلَقَ العقلُ الإنساني الدين، وأتمّ خلقه في حالة جهل الإنسان وعجزه عن مواجهة القوى الخارجية، فالدين نتيجة لتعامل خاص بين الإنسان وبيئته. ولكن هذه البيئة قد فات أوانها أو كاد، وقد كانت هي المسؤولة عن هذا التعامل معها فلا داعي للدين»[1].

ويضيف:

- «لقد انتهت العقيدة الإلهية إلى آخر نقطة تفيدنا، وهي لا تستطيع أن تقبل الآن أيّة تطوّرات، لقد اخترع الإنسان قوّة ما وراء الطبيعة لتحمّل عبء الدين»[2].

---

(١) Man in the Modern world P 130.

(٢) Ibid P 131.

ويقول أنجلس:

♦ «إنّ كلّ القيم الأخلاقية هي في تحليلها الأخير من خلق الظروف الاقتصادية»[1].

ويقول البيان الشيوعي:

♦ «إنّ الدستور والأخلاق والدين كلّها خدعة البرجوازية»[2].

أمّا الأسطورة التي يقدّمونها لذلك، فهو أنّ الإنسان اجتاز خمس مراحل حتّى الآن هي:

١ ـ مرحلة الأفكار.

٢ ـ مرحلة السحر والكهانة.

٣ ـ مرحلة الوثنية.

٤ ـ مرحلة التوحيد.

٥ ـ مرحلة العلم.

♦ «فالإنسان القديم، كان كلّ همّه بطنه وفرجه، لا يعرف شيئاً غيرهما كسائر أفراد القرد ثمّ عرف الزراعة، بعد مئات آلاف من السنين أخذ ينظر في السماء والأرض ويتساءل: ما هما؟ ومن هنا نشأت **«الأفكار»**!

ثمّ أخذ يفكّر في الموت، ذلك لأنّ الموت الطبيعي لم يكن من مألوف الإنسان، وكان أكثر ما يرى الموت عند القتل أو التردّي، أو الغرق فيعرف عندئذٍ سببه أمّا أنّ

---

(١) Anti Duhing Moscow 1954 P 131.

(٢) Communist menifesto.

الموت يحصل بلا سبب، فهذا ما لم يكن يعقله، لذلك صار يعتقد: أنّ الإنسان عندما يموت وحده بشيخوخة أو مرض، إنّما يحدث له هذا الموت بفعل كائن بعيد عنه، أراد به المرض أو الموت، ونجح في تحقيق إرادته بطرق خفيّة، خارجة عن مداركه: أي بالسحر. ومن هنا نشأ **«السحر»**!

ثمّ إنّ الإنسان رأى بعض الأشخاص يغمى عليهم، ثم يفيقون، ورأى في الرؤيا أنّ بعض الأموات يكلّمونه فاعتقد أنّ الإنسان ليس نهايته الموت، لما رأى من حياة الإنسان بعد موته (ظناً منه أنّه في حالة إغماء) في الرؤيا. من هنا نشأ اعتقاد الإيمان بالآخرة، ونشأ إلى جنبه احترام الجثة، واحترام الجثّة جرّ إلى عبادة الأصنام، لأنّهم كانوا ينحتون شبيه الميت، إذا كان عظيماً، ويعبدونه أي: يحترمونه.

ومن هنا نشأت **«الوثنية»**!

وحيث إنّ بعض الأمم لم تكن تعرف صناعة التماثيل والأصنام، وأرادت اللحوق بجيرانها من حيث احترام الآلهة فاخترعت لنفسها إلهاً واحداً.

ومن هنا نشأ **«التوحيد»**!

ثمّ جاء عهد العلم الذي حلّ محل الجميع[1]»!

---

(١) راجع: «نظرية التطوّر وأصل الإنسان» ص ٢٣٤ـ٢٣٧. و«بين الإسلام وداروں» ص ٣٨ـ٤٠.

وهذا البند كبقية البنود الداروِنيّة، قائم على مجرّد ادّعاء بلا برهان. كما يقول أحد المعاجم العلميّة[1].

إذ من أين عرفت الداروِنيّة ذلك؟ هل رافقت رحلة الإنسان الفكريّة خلال «مئات الآلاف من السنوات»؟ أم ماذا؟

وأيّ ربط بين هذه الأسطورة وبين «العلم» الذي تدّعي الداروِنيّة أنّه حلّ محل ذلك؟

يقول البروفسور «سيسيل باليس هامان»:

- «كانت العملية المدهشة في صيرورة الغذاء جزءاً من الجسم، تُنسب من قبل إلى الإله، فأصبحت اليوم بالمشاهدة الجديدة تعرف بأنّها «تفاعل كيماوي»، فهل أبطل هذا وجود الإله؟..

قطعاً: لا. فما القوة التي أخضعت العناصر الكيماويّة لتصبح تفاعلاً مفيداً؟

إنّ الغذاء بعد دخوله في الجسم الإنساني يمرُّ بمراحل كثيرة خلال نظام ذاتي، ومن المستحيل أن يتحقّق وجود هذا النظام المدهش عن طريق الصدفة المحضة. وهكذا يصير حتماً علينا بعد هذه المشاهدات أن نؤمن بأنّ اللّٰه يعمل بقوانينه العظمى التي وضعها للحياة»[2].

---

(١) Revolt against Reason P 112.

(٢) الإسلام يتحدّى ص ٤٢-٤٣ نقلاً عن: The Evidence of Go dinanex pounding universe P 221.

ب ـ الحضارة

.. وكما في الدين، كذلك في الحضارة، تتوسّل الداروينيّة، بأساطير وخرافات، تتضخّم تارةً وتتضاءل أخرى، وهي حين تسرد هذه الأساطير لا «تستحي» من أحد، إذ لا حياء في الادعاء!

وبما أنّنا لا نريد أن نفصل في رأي الداروينيّة في كلّ مظاهر الحضارة فسنكتفي بنقل جزء صغير من أسطورة الداروينيّة في الحضارة، وهو أسطورة تطوّر «اللّباس».

يقول سلامة موسى:

♦ «ليس تاريخ اللباس عند الإنسان سوى تاريخ الزينة والحُلّي، فإنّ الإنسان لم يلبس اللباس في أوّل مرّة اتقاءً للبرد والحرّ وإنّما هو قصد منه إلى الزينة فقط. فالوزرة التي يغطّي بها المتوحّش أعضاءه التناسلية لا يدفعه إلى وضعها حياؤه من الناس، بل هو يقصد منها لفت نظر الأنثى إليه.. (هكذا!)

فالحياء من المعاني الحديثة التي أنتجها التمدّن، والتي لا يعرفها الإنسان المتوحّش أو الحيوان، بل الذي أوجدها هو اللباس (هكذا .. أيضاً!)

وكلمة «الحياء» مشتقّة من «الحيا» وهو عضو التناسل في المرأة..

ولا بدّ أن الإنسان عند بدء خروجه من الحالة الحيوانية كانت بشرته مغطاة بالشعر، وهو لم يتجرّد من شعره إلاّ بالتدرّج، بل هو لم يتجرّد منه تماماً للآن، وربّما كان

«الانتخاب الجنسي» العامل الأكبر في هذا التجرّد، فلأمر ما قام في ذهن الرجال منذ زمان بعيد أنّ المرأة المتجرّدة من الشعر أجمل من المرأة الكاسية به فصارت أقلّ النساء شعراً أكثرهنّ أولاداً، وهؤلاء الأولاد يرثون أمّهم في قلّة الشعر، وما يحدث في المرأة ينعكس أثره بحكم الوراثة في الرجل، فيتجرّد الرجل أيضاً من الشعر وإن كان تجرّده أخفّ من تجرّد المرأة على نحو ظهور الثديين في صدر الرجل تبعاً لظهور الثديين في صدر المرأة.

ومن ضروب الزينة التي تؤيّد نظريتنا، وهي أنّ الحياء ليس أصلاً للباس، إنّ الشعر ينمو حول الأعضاء التناسلية عند الرجال والنساء دون سائر قرابتنا من القردة العليا، فهذا الشعر حديث العهد، (أهلاً ومرحباً به!) وهو لا يقصد منه إلاّ لفت النظر، وابتعاث الخواطر الجنسية في الأنثى والذكر[1]».

ومن الطبيعي أنّ الأسطورة لا تنتهي إلى هنا، فالخيال الداروني الخصب امتدّ إلى كلّ ما يرتبط بالحياة الحضاريّة، من الزراعة، إلى التجارة، والأخلاق، والطبخ، والإله، والزواج.. إلخ. وسجّل حول كلّ ذلك أساطير، أين منها أساطير .. سارقي النار؟

والمشكلة، ليست في ذات الأساطير، لأنّ الأسطورة تبقى على أيّ حال ذات قيمة أدبية حقّاً، إنّما المشكلة في أنّهم يريدون للأساطير هذه أن تمتدّ إلى فكر وعقل الإنسان، ومحاولة «تعليبها» في مصانع «العلم» السحريّة التي تلتهم الأسطورة من جانب،

---

(١) «نظرية التطوّر وأصل الإنسان» راجع ص ٢٢٧ـ٢٤١.

وتخرجها من جانب آخر وقد تحوّلت إلى علبة، كُتِب عليها «العلم.. للتصدير»!

وكانت هذه بداية سلسلة مآسي الإنسان في ظل الداروينيّة..

٢

الحرب . . ماساة طويلة

كيف تبدأ الحروب؟

لا شكّ أنّ للحروب أسبابها، ولكن تبقى شهوة السلطة أهمها حيث تعتمل هذه الشهوة في نفوس البعض فيشعرون بالرغبة في امتلاك السلطة على شعب معين، فيندفعون إلى التفكير في كيفية إزالة السلطة القائمة لتحلّ محلها سلطتهم الخاصّة.

هذا هو الخيط الذي يحرّك مفتعلي الحروب، فهل للنظرية الداروينيّة تأثير في تمتين هذا الخيط؟

الجواب: بكلّ تأكيد .. نعم!

لأنّ أوّل بنود النظرية الداروينيّة يصرّح بأنّ الإنسان إنّما صار إنساناً عن طريق الصراع الدموي الذي خاضه، في فترة طويلة، جدّاً من حياته..

كما يصرّح هذا البند، بأنّ الأقوى، كان دائماً هو المنتصر في هذا الصراع والأقدر على ارتقاء أبراج التطوّر والحضارة.

تفسّر الداروينيّة «الأقوى» بأنّه الأكثر امتلاكاً للقوّة، ووسائل تدمير «الآخرين».

إذن، فالصراع سنّة طبيعية في الكائنات كلّها، تبدأ بصورة طبيعية في الحيوانات وتنتهي، ببقاء الأقوى في بني البشر، بصورة طبيعية أيضاً.

وقد دفعت هذه العقيدة الداروبيّة، الشعوب، والسلطات إلى اتخاذ الموقفين التاليين:

١ ـ الاعتماد على قاعدة «ضرورة الحرب» كطريق طبيعي للتطوّر ولو كان على حساب تقدّم، أو بقاء الشعوب الأخرى.

٢ ـ قيام التكتلات العسكرية والسياسية، التي تزيد من قوّة امتلاك «وسائل البقاء»، ممّا تعمل بطريق مباشر أو غير مباشر إلى بسط «موائد» الحروب بين الشعوب باعتبارها ضرورات حياتية يفرضها منطق الأحداث!

يقول جورج حنّا:

- «أخرج تلاميذ داروين نظريته من النطاق البيولوجي المحض، وجعلوها أساساً للفلسفة المادية التطوريّة وأخذ علماء الاجتماع يتبنونها ويطبقونها في بحوثهم عن حياة الإنسان، وعن الصفة الصراعية البيولوجية فيها الآيلة بالنتيجة إلى خلق صفة صراعية اجتماعية طبقية في النوع البشري»[1].

وإذا كان عدد السكان فوق كرة التراب يتزايد بمقدار الضعف كلّ ٢٤ سنة..

وإذا كان تكاثر عدد السكان يؤدّي إلى نقص كبير في المواد

---

(١) «قصّة الإنسان» ص ١٩٨.

الغذائية، فإنّ الصراع من أجل البقاء، لن يختلف في ضرورته، وسخونته عن الصراع الذي يخوضه الكائن ضدّ تبدّل المناخ والذي تقضي السنّة الطبيعية بانتهائه ببقاء الأصلح - الأقوى - وفناء غير الأصلح - الضعيف.

هكذا تبرّر الداروتيّة موقف الأقوياء من الضعفاء..

هذا.. وقد أدّت «مطاطية» الداروتيّة إلى استغلالها من قِبل كافة السلطات في العالم. ابتداءً من منتهى اليسار وانتهاءً بمنتهى اليمين. لأنّها وجدت في الداروتيّة، ما يضفي على مواقفها الداخلية والخارجية صفة «الحتميّة الطبيعية» ممّا يبدو أنّ الداروتيّة فضفاضة إلى حدّ يسمح باستيعاب وتبرير المواقف المتناقضة في وقت واحد.

يقول جورج حنّا:

♦ «كان كارل ماركس داروتيّاً في علمه وفلسفته، فإذا كانت الداروتيّة تقوم على الصراع بين الفصائل الحيّة، وإذا كان هذا الصراع هو الذي أوصل الإنسان إلى حالته الحاضرة، التي جعلته الأرفع بين كلّ الكائنات الحية، فلماذا لا تسري هذه القاعدة الصراعية في الطبيعة على المجموعات البشرية!

فما دامت بيولوجية الحياة تقوم على المبدأ الصراعي فاجتماعية الحياة، لا بدّ وأن تقوم على هذا المبدأ»[1].

لأنّه يجد مبرّراً «علميّاً» و«منطقيّاً» و«طبيعيّاً» لهذا العمل!

إنّ مأساة الإنسان في هذه القرون، نابعة من تلك النظرة

---

(١) «قصّة الإنسان» ص ٢٢٠ـ٢٢١.

الحيوانية، التي ينظر بها الإنسان، إلى أخيه الإنسان، هذه النظرة الوحشيّة التي تستنتج ما يلي:

١ ـ عندما تقوم دولة عظمى بالاستيلاء على موارد البترول هنا وهناك بقوّة الحديد والنار، فإنّها تتجاوب مع منطق الأكثر قوّة . الأكثر حقّاً في العيش.

٢ ـ عندما قتل المستعمرون عشرين مليوناً من الشعب الصيني لاستعمار بلاده فإنّهم لم يفعلوا إلاّ: «إزالة الأفراد الذين لا يستحقون إلاّ .. الموت».

٣ ـ عندما دخلت الدول في الحرب الكونيّة الثانية، التي تركت وراءها ركام سبعين ألف ألف إنسان، فإنّها كانت تخدم البشرية التي لا «تتطوّر» إلاّ بالصراع، والحرب، والدمار!

٣

الاستعمار .. نتيجة طبيعية

تدعو النظرية الداروني‌ّة إلى الاستعمار، من خلال «برهنتها» على أنّ الكائن الأقوى، هو الذي يجب أن يسود «طبيعيّاً» على بقيّة الكائنات، غير القوية. كما أنّها تدعو الشعوب «المتأخّرة» إلى تقبّل الاستعمار، لأنّ «القوى» الاستعماريّة تملك هي دون غيرها مبرّرات البقاء.

يقول «غي دو بوشير»:

- «لقد أكّدنا عدّة مرّات أنّ العالم القديم لم يكن يقيم مشكلة اختيار العبيد على معايير من الجنس أو لون

البشرة، ولكن على معايير الضعف وسوء الحظ والفقر، وكان التصوّر الداروني لتطوّر الأنواع الحيوانية، عندما وضع على الصعيد الإنساني في القرن التاسع عشر، من شأنه أن يؤكّد يقيناً راسخ الجذور عند إنسان العالم القديم، أو العصر الوسيط، الذي كان يفكّر بشكل طبيعي إنّ كلّ فرد يجب أن يقاتل الآخرين لكي يبقى على قيد الحياة وأنّ الأفضل والأقوى والأقدر على الحكم، يبرزون من المنافسة في سبيل السلطة التي تنشأ عنها ميزات معيّنة[1].

ولذلك فإنّ الضعاف، وتعيسي الحظ جديرون بالوضع الذليل الذي يقضي به عليهم افتقارهم إلى الملكية والقدرة، في نموّه من اتجاه هذا الحكم الذي لم يعد ينطبق فقط على الأفراد، بل أصبح أيضاً ينطبق على الجماعات كما عجلت تجارة الرقيق أكثر من انتقال هذا الشعور من الفرد إلى الجماعة. ولا شكّ أن تجار الرقيق الذين كانوا يشهدون الاختلافات في الوضع القائم في إفريقيا، إذ كانت مهنتهم تدعوهم إلى التفاوض مع الملوك السود الأقوياء، هؤلاء كانوا أميلَ إلى اعتبار بضاعتهم من البشر حثالة المجتمع الذي وقع في سوء الحظ»[2].

ويقول جوليان هكسلي:

- «وبظهور نظريّة داروين بدأ المؤشر يتأرجح عكساً، واعتبر

---

(١) موريس دي فرجيه. مقدمة في السياسة.

(٢) تشريح جثّة الاستعمار ص ٢٢١.

الإنسان حيواناً مرّة أخرى ولكن على ضوء العلم (!) لا على الإحساس الساذج، وفي بادئ الأمر لم تتبين تماماً نتائج هذا الرأي الجديد، إلاّ أنّ المؤشر وصل شيئاً فشيئاً إلى أقصى مدى تأرجحه، وظهر ما بدا أنّه النتائج المنطقيّة لفروض دارون. فالإنسان حيوان كغيره، ولذلك فإنّ آراءه في معنى الحياة الإنسانية، والمثل العليا الإنسانية، لا تستحقّ بالنسبة إلى باقي الكائنات تقديراً أكثر من آراء الدودة الشريطية أو بكتيريا الباشلس. والبقاء هو المقياس الوحيد للنجاح التطوّري ولذلك فكلّ الكائنات الحيّة الموجودة متساوية القيمة، وليست فكرة التقدّم إلاّ فكرة إنسانيّة (...) ومن المسلّم به أنّ الإنسان في الوقت الحاضر سيّد المخلوقات، ولكن قد تحلّ محلّه النملة أو الفأر»[1].

على ضوء هذا التصوّر المؤلم، يمكننا أن نعرف سرّ قيام «مناطق التوتّر» و«دمامل الانفجار» في الأرض، بصورة ليس لها مثيل في تاريخ الإنسان كلّه.

فالإنسان ذو الثقافة الداروينيّة، لا يشعر بأيّ حرج عندما يدفع بأخيه في أتون الحرب، أو يشعل أوار الفتنة.

ويشرح لنا ذلك الدكتور Ashely Mohtagu في كلمات صريحة وموجزة فيقول:

- «لقد نشر كتاب دارون الذي ميّز حقبة تاريخية في الرابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٨٥٩ وكان عنوانه «أصل

(١) «الإنسان في العالم الحديث» لهكسلي ص ٢.

الأنواع بواسطة الانتقاء الطبيعي» أو «بقاء الأنواع المفضّلة في الكفاح من أجل الحياة» وهنا من اللحظة الأولى نفهم من عنوان هذا الكتاب الشهير، وبصورة أكيدة، أنّ بعض الأنواع يتفوّق في الكفاح من أجل الوجود بينما أنواع أخرى تخفق في ذلك، فأولئك الذين لهم اللياقة التكيفية الضرورية يبقون، أمّا الذين لا يملكونها فيميلون إلى أن يتركوا من ورائهم سلالة أقلّ منهم، ثمّ يضمحلّون. وكلّنا يعلم كيف أنّ هذه العقيدة وافقت رأسماليّة المذهب القائل - دعه يعمل - ومن هنا وإلى أبعد حد كان التبرير العلمي لتركيب الطبقات في المجتمع والاستغلال الاستعماري للمشاريع في مجتمع من هذا النوع»[1].

ويقول أيضاً:

♦ «وقد استعملت وجهة النظر الدارونيّة قاعدة لحجج مختلفة واسعة، كالتفريق بين الناس على أساس أنّ بعض الطوائف تخيّل أو ظنّ أنّها وضيعة، كما استعملت لتبرير الحروب وسلوك رجال الأعمال ولتربية الأطفال، وقيل إنّ الأجناس المتمدنة من البشر، ستبيد الأجناس المتوحّشة وتحلّ محلّها، وقد ردّد هذا الصدى كلّ من أرنست هيكل، وفرانسيس كالتون، وهيئة أركان الحرب الألمانية، وغيرهم.

وقد استطاع ذوو النزعة الداروينيّة من العلماء البارزين أن

(١) «طبيعة الإنسان البيولوجية الاجتماعية»، تأليف Ashley Mohtagu ترجمة الدكتور أحمد حسن الرحيم ص ١٧ـ١٨.

يقنعوا أنفسهم وأن يقعنوا الآخرين بأنّ الاستعباد الفعلي للطبقات السفلى، واستغلال أرض المستضعفين، أو الأجناس غير اللائقة، وإزاحة الجنس الأبيض لهم بالمخادعة، ليست أشياء ذات مبرّر بيولوجي وحسب، بل هي حكم الطبيعة الجلي أيضاً».

وإذا كانت «القوّة» هي التي تحدّد الأصلح في البقاء، وهي المبرّرات العلمية لاستعمار الشعوب، فإنّ نفس المنطق المادي يفرض على القوى الاستعمارية، في سبيل ديمومة الاستعمار، أن تتخذ كافّة الإجراءات الكفيلة بمنع التقدّم العلمي والصناعي للشعوب المستعمرة، لأن تقدّم هذه الشعوب يعني امتلاكها - هي الأخرى - للأقوى والأصلح ومع ذلك لا يبقى أيّ مبرّر .. للاستعمار!

* * *

٤

التفرقة العنصرية . .

يصرح «كالتون» وهو من مشاهير الداروينيّة، بأنّ:

- «نوعية المدنية تعتمد على صفات الأفراد الذين يألفونها، وإنّ انحطاط ونهوض المدنيات كان يقترن دائماً بنهوض وانحطاط الصفات الفطرية لشعوبها».

ويصرّح أيضاً:

- «إنّ الإنسان لا يمكن أن يُحرز مستوى عالياً في المدنية، ما لم يأخذ بيديه، وبصورة واعية، مسألة الاطمئنان إلى

استمرار تطمين الأفراد بصفات فطرية نامية، فالإنسان ـ كما قال ـ يستطيع أن يأخذ مسألة إنجاب الإنسان على عهدته، ولهذا الغرض فقد يجب الأخذ بعلم تحسين النسل وهو علم تحسين «الأروقة» (...) التي هي بكلّ تأكيد مقتصرة على مسائل الاقتران الحكيم، ولكنّها وخصوصاً في حالة الإنسان تحيط علماً بكلّ التأثيرات وتميل بدرجة مهما تكن ضئيلة إلى أن تعطي الأجناس الأكثر ثباتاً، أو تعطي محتويات الدم، فرصة جيّدة للظهور على الأجناس الأقلّ ثباتاً أسرع ممّا يتهيّأ لها أن تفعل»[1]...

وهكذا أثّرت الدارونيّة في الفكر الإنساني، حتّى قادته إلى تطبيق مذهب «العنصر» Racesm على الحياة.. وتبرير الحرب العنصرية.

ويظهر هذا الأثر بوضوح في محاضرة شهيرة لكارل بيرسون Karl Peatrson بعنوان: «الحياة الوطنية من وجهة نظر علمية» ١٩٢١ «إنّ وجهة نظري هي تنظيم كلّي محافظ عليه بدرجة عالية من الكفاية الداخلية وذلك بالتأكّد من أنّ أعضاءه مختارون بصورة أساسيّة من أحسن الأرومات ومحافظ عليها، كذلك بدرجة عالية من الكفاية الخارجية، بالمنافسة وذلك بصورة رئيسية، بالحرب مع العناصر الوضيعة ومع العناصر المكافئة بالكفاح على الطرق التجارية، ومصادر المادّة الخام والطعام والتجهيزات»[2].

وتمضي الدارونيّة إلى أكثر من ذلك، حينما تصرّح ـ على لسان السير آرثر كيت (١٨٦٦ـ١٩٥٥) بـ«إنّ الطبيعة تحفظ بستانها يانعاً

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٢.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٢ـ٢٣.

بالتقليم، وإنّ الحرب سكين ذلك التقليم، لأنّها لا تستطيع أن تستغني عن خدمتها، وإنّ هذا التكهّن الفظّ الكريه لمصير الإنسان يؤلمني فإنّ عالم أحلامي، عالم خلوّ من الحروب».

ويضيف قائلاً:

- إنّ عدوانية الإنسان شيء مضمون، والتحاملات فطرية، وهي جزء من ميراث كلّ طفل وإنّ هذه التحاملات قد عزّزت في طبائعنا لغرض خاص وهو غرض تطوّري، فهي أجزاء تطوّرية من ماكنة التطوّر التي تستعملها الطبيعة خلال الدهر، لتتمكّن من منع الناس من أن يتحوّلوا إلى جماعات راكدة وهكذا تحرز الطبيعة إنتاجاً من البشرية جديداً ومنقحاً فالطبيعة تمدّ الأزواج البداة بروح من العداء لأغراضها الخاصّة، وقد ورثنا ذلك، وتسرب إلى أوجه عديدة من حياتنا الحديثة كالمباريات العنصرية، والمحاسدات والكره العنصري. إنّ الاسم الحديث لروح العداء هذه هو: «التعصّب العنصري». وإنّ الطبيعة في ماضيها قد طلبت ممّن يبغون الاستقلال والسلام أن يحافظوا على هذين الامتيازين بطريقة واحدة وهي: أن يكونوا مستعدين للتضحية بدمهم لصيانتهما».

ولا ندري:

فيما إذا كان بالإمكان تقديم تبرير للحرب والعنصرية، والاستعباد أقوى من هذا التبرير الذي تقدّمه المادية الداروينيّة؟

المصادر العربية

أ

١ ـ القرآن الكريم.
٢ ـ الإسلام ونظرية دارون.
٣ ـ الأسبوع العربي مجلة ـ العدد ٦١٥.
٤ ـ اللّٰه يتجلّى في عصر العلم.
٥ ـ الإسلام يتحدّى.
٦ ـ أدب المقاومة في فلسطين المحتلّة.
٧ ـ الإنسان بين الماديّة والإسلام.
٨ ـ الإنسان ذلك المجهول.
٩ ـ الاقتصاد الإسلامي ج ١.
١٠ ـ أجوبة المسائل الدينية ـ مجلة ـ ، العددان ٣ـ٤ ربيع الأول/ ربيع الثاني ١٣٨٤.
١١ ـ الإسلام في عصر العلم.
١٢ ـ أصل الأنواع ـ ترجمة إسماعيل مظهر.
١٣ ـ الإنسان والارتقاء.

ب

١ ـ بين الإسلام ودارون.
٢ ـ بروتوكولات حكماء صهيون.

ت

١ ـ تصدّع مذهب دارون والإثبات العلمي لعقيدة الخلق.

٢ ـ تسلسل الإنسان.

٣ ـ تشريح جثّة الاستعمار.

٤ ـ تاريخ الحياة.

ج

١ ـ الجمهور ـ مجلّة ـ ، ١١ شباط ١٩٧١.

د

١ ـ الدارونيسم، أو الإنسان القردي.

٢ ـ دراسات في النفس الإنسانية.

٣ ـ دراسات في الاجتماع.

٤ ـ دائرة المعارف، فريد وجدي.

ر

١ ـ رسالة الردّ على الدهريين.

٢ ـ الرد على صادق العظم.

ص

١ ـ صفوة علم اليقين في حقيقة مذهب داروين.

ط

١ ـ طبيعة الإنسان البيولوجية الاجتماعية.

ع

١ ـ عباقرة العلم.

٢ ـ العلوم ـ مجلّة ـ، العدد ٧ السنة ٧ ١٩٦٢.

٣ ـ العمل الأدبي.

ف

١ ـ فرويد والتقاليد اليهودية الغيبية.

٢ ـ في ظلّ الإسلام.

٣ ـ فوكس ـ مجلة ـ، العدد يناير ١٩٥٤.

ق

١ ـ قصّة الإيمان.

٢ ـ القرآن محاولة لفهم عصري.

ل

١ ـ لودفيج فيورباخ.

م

١ ـ موسى والتوحيد.

٢ ـ الموسوعة العربية الميسّرة.

٣ ـ مقدّمة في السياسة.

٤ ـ معالم تاريخ الإنسانية ج ١.

٥ ـ الماركسية في الفلسفة.

٦ ـ المنطق ومناهج البحث.

٧ ـ مناهج الحكماء في نفي النشوء والارتقاء.

٨ ـ مع نظرية التطوّر.

٩ ـ الماديّة الديالكتيكية، والماديّة التاريخيّة.

١٠ ـ الماديّة والمثالية في الفلسفة.

ن

١ ـ نظرية التطوّر وأصل الإنسان.

٢ ـ نظرات على عالم اليوم.

٣ ـ نقد فلسفة دارون.

٤ ـ نظرات في القرآن.

٥ ـ نقد الفكر الديني.

٦ ـ نقد النظرية الماركسية.

٧ ـ نوع الإنسان، لويركو.

المصادر الأجنبية

1 - A free Man's Worship in Mysticism and Logic Ailen and Vnwin London 1951.

2 - Revolt against Reason A Lunn. R 133

3 - Man does not stand Alone.

4 - The Evidence of God.

5 - Man in The Modern World.

6 - Man and Desting.

7 - Pierre Rossi Les ciefsde guerre.

8 - Anti Duhing Moscow 1954.

9 - Communist Menifesto.

10 - Islamic thought dec. 1961.

11 - Jwn Sullivan Limitation of science.

١٢ ـ أصل الأنواع ـ فارسي.

١٣ ـ بحث در باره دار وينيسم ـ فارسي

14 - Le choc du futur Alvin toffter.



محتويات الكتاب

القسم الثالث

مأساة الإنسان في ظلّ الماديّة الداروينيّة

السيد هادي المدرسي

تهافت النظريّة الداروينية

وسقوط النظريات التابعة





لبنان - بيروت - الرويس - بناية عروس الرويس
تلفاكس: ٠٠٩٦١١/٥٤٥١٨٢ موبايل: ٠٠٩٦١٣/٤٧٣٩١٩
ص.ب: ٢٤/١٤٠
www.daraloloum.com
E.mail:info@daraloloum.com

السيد هادي المدرسي

تهافت النظريّة الداروينية

